اقرأ

مارون عبود

أمين الريحاني

دار المعارف بمصر

أمين الرّيحاني

مارون عبود

أمين الريحاني

١٣١ اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرا ١٣١ – أول نوفمبر ١٩٥٣



إلى الذى قال : قل كلمتك وامش .

البساطة روح الفن ، والانسجام روح الجمال .

العمال ، عبيد وسادة ، هم مطبخ الجمهورية ، بل معدتها الهاضمة .

إخوانى العرب : ساووا بين الشعوب العربية كلها ، من حلب إلى عدن ومن العريش إلى خافقين ، وافتحوا مكة للعالم أجمع ، وعلموا وحرروا المرأة .

إلى غوستاف له بون الشرق

إلى روح فيلسوف الفريكة المخلص لإنسانيته أهدى هذا الكتاب

عين كفاع ٣٠ / ٩ / ١٩٥٢ مارون عبود

فيلسوف الفريكة

١٨٧٦ — ١٩٤٠

نشأته ، وعبقريته ، وشهرته

ما ألفت السير على الطرق المعبدة لأترجم لأمين الريحانى كما اعتاد الكتاب أن يفعلوا ؛ فأمين بن فارس الريحانى ولد فى قرية تدعى الفريكة ، وقد أسماها حين شب وكتب فى واديها مقاله الرائع الذى مطلعه : « وادى الفريكة مهيب وجميل غير أن هيبته أكثر من جماله ، وهو عميق ملتو ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه فى نهر الكلب . »

فى بيت لبنانى ، طعماً ولوناً ، نشأ أمين ، وذلك البيت القائم على كتف كنيسة مار مارون ، الناظر من عل إلى الوادى المتجهم وصخوره المنتصبة كالجبابرة الواقفين على السلاح ، قد أمسى بفضل نبوغ صاحبه مزاراً للناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم . وضع أمين بعد عودته الثانية من رحلته الأميركية سجلا فى صحن ذلك البيت فانطوى على الآلاف من أسماء الزائرين ،

المعجبين بأدب الريحانى الثائر المتحرر .

نشأ أمين نشأة طائفية ، وكان فى صغره لا يهدأ ولا يستقر . ركب بغلا فى الرابعة من عمره فرمحه ذلك البغل اللعين ولكنه نجا وسلم ، وبعد ستين عاماً مرت على حادثة البغل ركب الدراجة فسقط فى قناة الطريق ، ولفظ روحه بعد بضعة عشر يوماً .

تحت الزيتونة تلمذ أولا لخورى الضيعة خادم كنيسة مار مارون وخدم له القداس وقرأ الرسائل والسنكسار . . . وبعد عامين انتقل إلى مدرسة حديثة أنشأها نعوم المكرزل فدرس فيها مبادئ العربية والفرنسية .

وأعتلت صحته بعد رمحة البغل فنذرته والدته لقديس كفيفان — الحرديني — وألبسته الطوق الفضى المبارك بوضعه على ضريح القديس ، ثم أزارته والدته مقام الطوباوى الجديد « وهو يرفل فى قمباز مخطط معصفر ، وعلى رأسه طربوش تعلوه كوفية بيضاء » (قلب لبنان ٣٥١) .

وحوالى السنة الثانية عشرة من عمره — كما جاء فى مقدمة ملوك العرب — أو العاشرة ، كما كتب فى مقدمة — المغرب الأقصى — هاجر الريحانى إلى أميركا مرافقاً عمه عبده وأستاذه نعوم المكرزل . وفى نيويورك درس الإنجليزية عاماً واحداً ،

ثم أخذ ينصرف إلى محل عمه وأبيه نهاراً ، وإلى الدرس ليلا ، ولم تعجبه التجارة فعاف دفاتر المحل وانضم إلى جوقة تمثيلية . وأخفقت الجوقة ولكن أميناً الذى أخفق فى التمثيل لم يخفق فى تمثل الثقافة الإنكليزية فدخل كلية الحقوق . ثم ولاها ظهره ليكون محامياً عن أمته غير مأجور ، ووكيلا مسخراً عن الرأى العام ، وكاتباً جباراً عنيداً يقول كلمته ويمشى .

وساءت صحته بعد سنوات فعاد إلى لبنان ، فكان معلماً للإنكليزية فى مدرسة قرنة شهوان ، جارة الفريكة ، وهناك تمكن من العربية ما أمكن ، وعرف الأدب العربى وشعره ، ووقعت الطيور على أشكالها ، فعرف أبا العلاء المعرى الذى ترجم بعض لزومياته بلغة شكسبير ، فانفتحت بوجهه أبواب الشهرة فى الشرق والغرب . ومضى يكتب بالقلم الإنجليزى فاحتل مقاماً رفيعاً بين أدبائه . وكما توج فولتير من قبل توج الريحانى بإكليل من الغار فى حفلة شائقة أقامها على شرفة نادى الثريا الأميركانى ، كما أنبأنا سليم سركيس فى مجلته المعروفة باسمه ، قال : لم أحضر حتى الآن حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والأبدان فهذه لا يدعى إليها إلا أصحاب التيجان ومن كان على طريقتهم .

على أننى وفقت إلى حضور حفلة تتويج أحد ملوك البيان ، أريد به أمين الريحانى الكاتب البليغ والشاعر المجيد ، صاحب

المؤلفات الراقية فى اللغتين العربية والإنكليزية .

تلك حفلة أقامها نفر من أمراء الشعر والنثر الأميركان فى مدينة نيويورك ، تكريماً لوطنينا أمين الريحانى على أثر ما تبينوه فى مؤلفاته من الأدب الجم . وذلك على أثر انتشار كتابه « اللزوميات » باللغة الإنكليزية .

وبعد أن وصف سليم سركيس ما فى المأدبة من تأنق وإسراف أميركيين ، وما ألقى وأنشد من نثر وشعر ، قال : « ومثلت لنا سيدة أميركية — لا أذكر اسمها — دوراً غريباً عجيباً لم أسمع نظيره من قبل ، ولا سمعت مثله حتى الآن . ذلك أنها وقفت وأخذت تصفر بفمها صفيراً مثلت لنا فيه معركة حربية ، من ابتداء الموسيقى العسكرية إلى زحف الجيش ، إلى القتال فأصوات المدافع فالبنادق ، فأنين الجرحى ، إلى آخر ما هناك مما حير العقول . ولما فرغ الفضلاء من أقوالهم دعى أمين ريحانى إلى منبر خاص أقيم هناك ، وألقى الرئيس — رئيس نادى الثريا الأميركى — خطاب الثناء والإطراء والإعجاب ، ثم تناول الإكليل وتوج به الأمين » .

ومشى أمين يضرب فى دنيا الشهرة ، فبرز فى اللسانين الإنكليزى والعربى فأمسى بعد الجهاد ذلك الأديب العالمى ، فذكر اسمه فى دليل مشاهير كتّاب أميركا وكندا (سنة

١٩٣٠ — ٣١ ص١٨٧) وفى دليل مشاهير الأدباء المطبوع فى إنكلترا (صفحة ٣٦٦ حرف الراء) .

فبعد المجون الذى خاض عبابه أمين الممثل الخائب ، ترصن الريحانى وأمسى تلك الشخصية التى احترمها ملوك عصره فى كل قارة من قارات الأرض ، فكانت تقام له الحفلات التكريمية فى جميع القارات حيث تحل ركابه ، وحسبك أن تقول فى أسلوبه الإنكليزى الرفيع جريدة بوستون هرالد : لقد تبوّأ الرأس الشرقى مقعده فى الأدب الإنكليزى بظهور كتاب « خالد » . أما جريدة نيويورك بوست فقالت : إن لأمين الريحانى منحة سامية من جمال اللغة .

وقضى أمين حياته لا يستقر ، فإذا ملّ الشرق غرّب ، وإذا سئم الغرب شرّق ، وهكذا دواليك إلى أن من الله عليه بالموت فى البقعة التى أحبها ، واستراح جثمانه فى الرابع عشر من أيلول عام ١٩٤٠ من جهاده ، ونام على كتف الوادى الذى أحبه نومة الأبد .

تآليفه :

كثيرة ستسمع ببعضها مما قيل عنها حين ظهرت فى عالم الأدب الرفيع ، وتتعرف على بعضها الآخر فى الفصول التى ستقرأها ، ولكنك لا تظفر باللذة كاملة إلا إذا قرأتها كلها .

الكاتب الشاعر الإنجليزى

كتب أمين ، أولا بلغة شكسبير فأسمع الأميركان والإنجليز صوتاً شرقيًّا ، فأصغوا إليه واسترعى انتباههم . ولما كنت لا أستطيع تقدير قيمته الإنكلوميركية فأى بأس علىّ إذا استعنت بأقلام القوم الذين يزنون الذهب « بالبنس » ؟ ! فاقرأ هذه الجزازات التى جمعتها لى ولك ، أيها القارئ ، من هنا وهناك وهنالك .

اللزوميات :

عندما انتشرت ترجمة الريحانى للرباعيات المعرّية إلى اللغة الإنكليزية نوهت بها الجرائد الأميركية بين مقرظة ومنتقدة . وطبعت الترجمة فى إنكلترة أيضاً وقرظتها الجرائد الإنكليزية وانتقدتها أكثر من الأميركية ، فقال فيها أدوين ماركهام وهو من كبار شعراء أميركا : ولأمين الريحانى خاطر شريف فى الحياة ، وسهولة ورقة فى التعبير .

وقال أيضاً : أبو العلاء شاعر حقيقى « مبدع » وله فلسفة أسمى وأنبل من فلسفة عمر الخيام ، وفى ترجمة الريحانى لمنتخباته مزايا شعرية نادرة .

وقال كليتون سكولارد : لو كان لى مجثم فى حديقة تزهو فيها زهور دمشق فما كان أسعدنى أن أقضى سويعات العصر والغروب متصفحاً اللزوميات ، ترجمة الريحانى .

خالد :

قصة فلسفية مزينة ببعض الرسوم التى جادت بها ريشة جبران خليل جبران . تناول الريحانى فى هذه القصة حياة بطلها — خالد — بالتحليل والدرس ، فنقد بلسانه سيئات وحسنات الشرق والغرب. فوصفت وصفاً دقيقاً حافلا بالسخر والتهكم الريحانيين ، بلغة إنكليزية رفيعة يحسده عليها كتاب الإنكليز أنفسهم .

قالت مجلة « ريفيو أوف ريفيوز » فى كتاب خالد :

هذه أول مرة يظهر فيها كتاب لأجنبى يتكلم فيه عن الأميركان بسخرية ناعمة . إن كتاب خالد يعد من الكتب الممتازة فى الأدب الإنجليزى .

وكتب ريتشرد لى كاليانى أحد شعراء أميركا المعروفين ما يلى :

إنها المرة الأولى التى أقع فيها على كتاب قيم ومغر فى حياتى. فكتاب خالد هو كتاب عاشه المؤلف ثم كتبه . وفى هذه الحالة تقع قيمة الكتاب فى كامل معرفته .

وقال فى مناسبة أخرى : هذا أصدقُ كتاب رأيته وأوفرها تملكاً للخواطر .

وقالت جريدة الأخبار بمصر فى ١٤ ك ٢ سنة ١٩١٢ .

لعل الريحانى أبرع سورى كتب باللغة الإنكليزية . والريحانى فى كتاب خالد شديد الإعجاب بالأمة الأميركية ويزعم أنها ستسود على الأقطار يوماً ، وأن أفرادها سيصبحون فى الزمن القادم بمثابة الآلهة السائدين على طوائف الأمس بقوة علمهم وسمو مداركهم بالرغم من انتقاده القاسى لعاداتهم وللملكة التكالب على المال .

أناشيد الصوفية :

وكتب أحد أدباء الإنكليز عن ديوان الريحانى « أناشيد الصوفية » فقال :

« إنه جامع بين عظمة آثار الشرق وجمال معانى الغرب .

جادة الرؤيا :

عندما ظهر هذا الكتاب كتبت النيويورك تيمس عنه ما يلى : فى هذا الكتاب جمع الريحانى مقالاته الاجتماعية السياسية العربية فى الشرق والغرب . وللريحانى جمال فريد فى النثر . وفى هذا الكتاب تتبين مقدرته الإنكليزية وطريقته الجميلة الخاصة ،

تلك الطريقة الجميلة الخاصة بمسحتها الشرقية الممتازة ، وبسخريتها الأميركية الرفيعة .

أنشودة الصوفيين :

وفى هذا الديوان قالت النيمس أيضاً : إن الريحانى شاعر عميق ذو خيال خصب ومقدرة شعرية عالية. وإن شعره يزداد جمالا فى صوره الشرقية البديعة .

ملوك العرب :

كتبت عنه جريدة روما الإيطالية حين ظهر بالإنكليزية واصفة أولا فصول الكتاب والطريقة التى كتب بها ثم قالت : نرى كل ذلك أمامنا ليس فقط ككلام مموه بعبارات جميلة بل كلوحة حية صنعتها يد أشهر مصورينا العظام .

وقال الأستاذ ا . س يهودا المستشرق الألمانى فى كتاب أرسله إلى الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف :

« قرأت كتاب ملوك العرب بكل اعتناء، ولم أر كتاباً أكمل وأحسن وأنفع وأبدع منه ، وهو يفوق كل ما كتب حتى الآن فى هذا الموضوع . وقد لفت نظر كثيرين من رفقائى منذ طبع فاستحسنوه مثلى ، حتى إن أحد الأساتذة فى كلية هيدلبرغ

يقرأه الآن مع تلاميذه المستشرقين .

ابن سعود : بلاده ، شعبه :

كتب السرادينون روس فى الأوبزرفر عندما قرأه :

هذه أول مرة نعطى مؤلفاً مكتوباً بالإنكليرية عن رجل لغته العربية . إن هذا الكتاب ذو قيمة كبيرة لدرس السياسة الراهنة والحقائق الموثوقة . وهو ذو ناحيتين مختلفتين ، الناحية السياسية ، والناحية التاريخية الوصفية . وقد أجاد المؤلف فى الاثنتين .

وكتبت مجلة بوك ريفيو ما يلى : كل كتاب يدبجه قلم أمين الريحانى يعد ثروة أدبية فى العالم العربى ، وكتابه ابن سعود يعد أحسن كتاب كتب عن البلاد العربية حتى الساعة .

منشئ العربية الحديثة :

وكتب هوتن منفلن عن هذا الكتاب ما يلى : إن الريحانى هو الرجل الوحيد الذى جاب الجزيرة العربية كلها فى سياحة واحدة ، وكتابه الإنجليزى يمتاز عن غيره فى وصفه الجميل ، وفى سرد الحوادث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

أقوال عامة

كان لكتابات الريحانى عن بلاد العرب وملوكها ، وخصيصاً ابن سعود ، أبعد الأثر فى الجرائد والمجلات الإنكليزية العديدة ، — ومنها مجلة آسيا الشهيرة — فكانت تلك الكتابات خير وسيلة لتعريف الغرب على الشرق ورجالاته . لقد حلت تلك الكتابات محلها الأسمى فى النفوس لأن لكاتبها منزلة رفيعة عند قراء الإنكليزية.

ولهذا كتبت عنه مجلة آسيا ما تعريبه :

« إن كثيرين من الأوربيين — سياسيين وجنوداً وعلماء — زاروا بلاد العرب . فهناك مثلا (بركهارت) و (بورتون) و (دوتى) الذين طافوا أنحاء بلاد العرب الوسطى والغربية . و (فلبى) الذى اجتاز الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر ، ولكن قل بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المساعدة على التعرف الصحيح ، وحق المعرفة ، فى بلاد العرب وملوكها كأمين الريحانى .

إن العربية هى لغته وهو يتقنها كما يتقن الإنجليزية ، ويكتب ببلاغة فى اللغتين — وقد تنقل فى جميع أنحاء الجزيرة وغايته إيجاد حلف عربى يجمع ملك الحجاز وإمام اليمن والسيد

الأدريسى وسلطان نجد فى هذا الاتفاق ، فيوجد إمبراطورية عربية تعمل فى سبيل السلام والتمدن . »

وكتب رئيس نادى الثريا فى الولايات المتحدة ، وهو ناد – كما مر – يضم كبار أدباء أميركا فى الولايات المتحدة : «إن أمين الريحانى هو أفصح خطيب دخل دائرتنا . »

واعترافاً بنبوغه وعبقريته قد دعاه المستر ماركهام، أشعر شعراء الولايات المتحدة ، إلى مأدبة تعود أن يقيمها للخلص من زملائه كل عام .

ودبج « فاركاس لا فيلا » الكاتب الشهير الذى يعد عند الأسبان بمنزلة مكسيم غوركى الروسى ، فصولا تحت عنوان « أطواق الذهب » تحدث فيها عن طائفة من جبابرة الفكر فى هذا العصر فقال عن الريحانى ما يلى :

« بماذا ترانى أحدثك عن أمين الريحانى الشاعر الحقيقى الساحر . يخلبنى بعمق فكرته ورحابة آفاق تأملاته وخياله . فقد تجنح فكره واختمر خياله الخصب النامى حتى أصبحا شعراً ، وحتى تحولا إلى خمرة معتقة إذا سكبت فى الأقداح لا تعافها الأفواه .

لقد نشأ هذا الشاعر فى بوادى الشرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وفى ظل ظلال الجوامع العالية . فى وسط هذه التأثيرات

الصامتة ملأ جرة أحلامه وتصوراته وخيالاته ، وعند ما نما فكره وارتفعت شجيرة أحلامه أفرغها شعراً عميقاً وطروباً فى أفواه الآلهة . . . »

وقال الأستاذ كراتشكوفسكى المستشرق الروسى فى كتاب أرسله إلى صديق له :

« إنك لتسمع غالباً فى كتابات الريحانى المبتكرة أصواتاً حربية جريئة بعيدة الصدى ، فهو ينشد الثورة ويدعو الناس إلى التآخى . ومع ذلك فالقوة فى نبوغه ليست فقط فى هذه الناحية من أدبه » .

وقال أيضاً :

الريحانى هو أكبر كاتب عربى فى هذا الزمان .

وكتب نظمى نسيم فى جريدة السائح النيويركية : لا أحسب أن فى العالم العربى شخصاً آخر يحسن اللغة الإنجليزية كالريحانى ، ولم أعرف أو أسمع أن كاتباً من كتابنا الذين هنا وفى سوريا ومصر وإنكلترا وكل مكان آخر ، قد جلس على عرش لغة بيكن وشكسبير كما جلس ويجلس أمين الريحانى .

وآخر كلمة ندونها فى هذا الموضوع هى التى ننقلها عن كتاب أمين « المغرب الأقصى » الذى أخرجته حديثاً « دار المعارف » الرصينة . قال المقيم العام الإسبانى فى حفلة معهد

الدروس المغربية بتطوان : « نحتفل اليوم فى هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية ، الأستاذ أمين الريحانى الذى شرفنا بقبول تسميته مديراً شرفيًّا لمعهد الدروس المغربية . قد كان من أعز رغائبنا أن يتعرف إلى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعينى رأسه عمل فرنكو .

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها فى العالم العربى . . . . إننا نترك الأمر لحكم التاريخ ، والآن لشهادة أمين الريحانى » .

* * *

هذه كلمات تدل على المنزلة السامية التى احتلها أمين فى نفوس رجالات العالم قديمه وجديده .

فى لغة الضاد

راود أمين لغته عن نفسها فما لانت له فى أوائل كتبه : الثورة الفرنسية ، والمحالفة الثلاثية حتى ولا الريحانيات ، ولكن أميناً كان يرمى إلى غرض أسمى من التزويق والتنميق . كان يعنيه أولا أن يعبر عن فكرة إصلاحية ، ولهذا كتب المحالفة الثلاثية ، والثورة الفرنسية ، والتساهل الدينى ، والمكارى والكاهن ، ومع ذلك لم يعن الناس بعبارته لأن فكرته الجريئة شغلتهم عن

كل ذلك ، ولذلك قالت جريدة الشمس النيويركية — سنة ١٩٠٤ — عن المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية :

إن هذا الكتيب الصغير خلق ثورة فكرية فى الجالية السورية وبعض الأميركان فى هذه المدينة حتى إن أحدهم قال : إن إميل زولا نفسه لم يكن قاسياً بكتاباته كما كان الريحانى فى المحالفة الثلاثية .

وكتب ج . معلوف فى أبى الهول :

أتى أمين الريحانى الولايات المتحدة وهو صغير فقدرت له الظروف أن يتقلب فى أحوال شتى . فعندما كان يافعاً افتتن بالتمثيل فكان يمثل على المراسح الأميركية روايات شكسبير ، ومن ذلك اكتسب مقدرته الفائقة فى آداب اللغة الإنكليزية وحسن الإلقاء . ثم تعلم التصوير الهزلى — والصور التى فى كتابه المحالفة الثلاثية هى تصوير يده — وكان لمدة متولياً إدارة محل أبيه التجارية فعرف كفاية عن معاملات الناس المادية . وهكذا درس أدوار الحياة قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره .

عرفت الريحانى لأول مرة فى حفلة جمعية السيدات السوريات فى نيويورك فكان الريحانى مندوباً من قبل جمعية الشبان السوريين ليخطب فى تلك الحفلة ، فخطب بالإنكليزية لأنه لم يكن يحسن الإلقاء بالعربية آنئذ ، ثم ساح إلى الوطن وبعد رجوعه

سمعته يخطب مرة أخرى فى حفلة جمعية الشبان المارونية فى نيويرك وكانت تلك أكبر حفلة سورية ، فخطب بالعربية فى موضوع التساهل الدينى ، كقاعدة لإصلاح الشرق . ومع أنه تكلم بحرية وبجرأة لم يسبق لهما مثيل ، كان يقاطع بتصفيق الاستحسان من الجمهور . ثم ألف كتابه (المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية) وقصده هدم الخرافات الدينية ، ولكنه كان شديد اللهجة فصادف اضطهاداً عاماً وقامت عليه الجرائد والإكليروس. حتى إنه قبل أن ينتشر كتابه المحالفة الثلاثية لم يكن أحد يجسر على أن يقول كلمة بذى سلطان ، فصار بعد ذلك أشد الانتقاد هيناً ومقبولا ، وصار الناس ، ومنهم الكتاب ، يتمتعون بالدرجة الوسطى من حرية القول . والفضل فى ذلك للريحانى . ثم ترجم مختارات من أشعار أبى العلاء فكان لها دوى فى أميركا وأوربا .

وكتب حبيب البشعلانى بعد ما سمعه يخطب : ومضى الريحانى فى المجالس والنوادى الأدبية يثير سكونها ، ويبعث نفسيتها الوجلة ويوقظها على الثورة ، وينادى من فوق منابرها بالهدم والتحطيم ، معلناً الثورة على المجتمع وتقاليده وسلطاته الموبوءة بالجور ، وعلى خموله وقعوده ، لا يستثنى تقليداً اجتماعياً كان أو سياسياً حتى الدين ورجاله ، وهما أعز تمكيناً من النفوس وأقوى سلطاناً فى المجتمع الشرقى .

كان عليك ، فى ذلك العهد ، لتدرك سر هذا الرسول الخارج المنادى بدعوته ، أن تسمعه داعياً خاطباً لا أن تقرأه كاتباً منشوراً فى الصحف ، والريحانى جليل المنطق مهيب الموقف قوى الإيمان بدعوته فيبعثها محرقة ، ونظيره فى الإلقاء قليل .)

وبعد هذا جاء الريحانى لبنان جيئة لا أدرى عددها الترتيبى ، فراح يذيع فى صحف العالم العربى ريحانياته فلفتت إليه أنظار الأدباء والكتاب . وقالت فيها مى : إن الريحانيات كانت من الكتب الخمسة أو الستة التى عرفتنى بإيمان الفكر الحر فى العالم العربى الحديث فى صيغتى الشعر والنثر .

وقال فليكس فارس : لقد أصبح كوخ الريحانى فى أعالى الوادى محجاً يؤمه كل من استطاب نفحات الأدب ، والشعر والأدب دولة ، الفلاسفة ملوكها ، والشعراء أمراؤها .

وكتب الدكتور منصور فهمى : لقد تبينت من القطعة التى سمعتها (من إنشاء الريحانى) أسلوب العظمة الكتابية وصفاء النفس ، والروح الثائرة على النظم العتيقة .

أمين الرحالة

وخطر لأمين أن يرحل فى سبيل الوحدة العربية تاركاً الصوفية وخيمة الدرويش وكوزه وإبريقه ، فاستقبلته الأقطار العربية استقبالا منقطع النظير استحقه جاهه الأدبي ، فكتبت جريدة الأهرام عند وصوله إلى القاهرة سنة ١٩٢٢ : (هو الكاتب المشهور والمفكر المدقق صاحب التآليف الثمينة باللغتين العربية والإنكليزية ، وخير ممثل للنبوغ الشرقى فى العالمين الأميركى والأوربى .)

وعندما أقيمت له حفلات التكريم فى مصر قبل سياحته فى جزيرة العربية أقام له أحمد زكى باشا حفلة دعاها (صحراوية) وكان الحاضرون لا يقلون عن خمسة آلاف شخص ، وقد حملت رقعة الدعوة ما يلى :

أحمد زكى باشا يرجو مشاركته فى تكريم ثالت الثلاثة بعد الجعدى والذبيانى ، نابغة العرب الجديد أمين الريحانى بتناول الشاى على سماط بدوى فوق بساط الرمل وتحت ظلال الأشجار الحرام التى غرسها الصحابة الكرام فى سفح الأهرام ، يشرف عليها بلهيث « أبو الهول » الفصيح بإشارته ، البليغ فى صمته ، القائم على الدوام بحراسة كنانة الله فى أرضه .

وقد نظم أحمد شوقى قصيدة لهذه الحفلة العظمى التى حضرها أساطين مصر حتى شيخ الأزهر ، ومما قال فيها مخاطباً الأهرام .

هذا الأمين بحائطيك مطوفاً متقـــدم الحجاج والوفاد
إن يعده منك الخلود فشعره باق وليس بيانه لنفاد
إيه (أمين) لمست كل محجب فى الحسن من أثر العقول و باد

إلى أن يقول :

رفعوا لك الريحان كاسمك طيباً إن العمار تحية الأمجاد
وتخيروا للمهرجان مكانه وجعلت موضع الاحتفاء فوادى

إلى أن قال يحثه على تجديد لغته العربية :

لم يكفهم شطر النبوغ ، فزدهم إن كنت بالشطرين غير جواد
أودع لسانك واللغات فربما غنى الأصيل بمنطق الأجداد
إن الذى ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره فى الضاد

أما مى فقالت : إن الريحانى وجبران توأمان : عبقريتان ساميتان برزتا إلى عالم الوجود تحت سماء سوريا ، والقرن الماضى ينحدر إلى خاتمته . غادرا الشرق ونزعا إلى وسط حار ، كله عمل ، كله نشاط وعظة . وهما اليوم يداعبان الذيوع بما يبذرانه من آيات خالدة . ولسوف تكون تلك الآيات حديثاً منقولا فائح الشذى يطير بأجنحة الزمن من قرن إلى قرن . ولسوف يتوجهما الغد بإكليل وضعه من قبل على رأس شكسبير . كرموا اليوم

ضيفكم وانصتوا إلى تلك القيثارة العازفة فما هى باقية بينكم سرمداً .

فى العراق :

ولم تقصر العراق عن مصر فى تكريم الأمين فأقامت له حفلات عظيمة كمصر . لم يظفر أديب من قبل ، بما ظفر به الريحانى ، إذ لم يبق شاعر كبير فى مصر والعراق وجميع الأقطار العربية إلا قال فيه خير شعره . كانت زيارة أمين لقاحاً للأذهان والعقول ، داعية إلى الثورة الفكرية التى رأيناها فيما بعد . فهذا شاعر العراق الأمثل معروف الرصافى يخاطب الريحانى قائلا :

من أين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير فى وطن يكون السيف عند جبانه ، والمال عند بخيله
والرأى عند طريده ، والعلم عند غريبه ، والحكم عند دخيله
وقد استبد قليله بكثيره ظلما ، وذل كثير لقليله

وهذا الشاعر الفيلسوف الزهاوى يقول :

أقول للغرب وهو اليوم ذو قدر يلقى على الشرق كف القاهر البطر
كفاك ما أنت تأتيه من الضرر للشرق أرهقت لا تخشى حزازته
يا غرب إنك مغرور به أشرُ

إلى أن قال :

خفف من الوطء فالأيام تنقلب الشرق يشبه بركاناً به حمم

أخاف من أنه يا غرب ينفجر

وكأن فيلسوف الفريكة قد أصبح المنقذ المنتظر حتى هتف به ثالث شعراء العراق محمد الجواهرى :

أمثقف القلم الذى آلى على — أن ليس ترجح كفة استعباد
ومشيداً للشرق ركنا يلتجى — منه بأمنع ذمة وعماد
أنصف شكية شاعر قد حلقت — بالصبر منه فظائع الأنكاد

وهكذا مضى الشاعر يبث شكواه ببلاغته وحماسته المعهودة .

إن لهذه الحفلات التكريمية كتباً جمعت ما قيل فيها ، وليس يتسع هذا المجال للتحدث عنها وعنه المتكلمين فيها جميعاً ..

رسول الوحدة العربية

لا بدع إن سبق الريحانى الساسة إلى التفكير بجامعة عربية ، وهل نستغرب ذلك والتاريخ ينبئنا أن الفكرة السياسية يتمخض بها ، أولا ، دماغ أديب أو فيلسوف . زج الريحانى نفسه فى هذا المضمار ، وكله إيمان بحيوية الأمة التى « فى عروقه شىء من دمها » فمشى رافعاً علمها فى الخافقين . ما يئس أمين قط من فوز دعوته ولو بعد حين ، وقد حققت الأيام الكثير من أمانيه الكبيرة ولكنه لم ير بعينيه ما دعا إليه لسانه . وما أظنه إلا عابثاً حين شبه نفسه بدون كيشوت فى مقدمة كتابه « المغرب

الأقصى » الذى أخرجته حديثاً « دار المعارف المصرية » بحلة قشيبة بعد موته . قال أمين رحمه الله :

« ورأيتنى أعيد الكيخوتية — عفواً يا سيدى سرفنتس — إلى أصلها العربى ، وإن تغرب لسانها . رأيتنى أشحذ القلم واللسان بالإنكليزية ، وأحبر المقالات وأؤلف الكتب بالإنكليزية وأقف على منابر الجمعيات والجامعات الأميركية ، الإنكليزية ، لأفهم العالم الجديد ، رومان هذا الزمان ، إن فى العالم غير أميركا والأميركان ، وأنهم هالكون حتماً إذا استمروا فى جهلهم واستقووا . والغريب العجيب أنهم مثل البرابرة فى الطهر والسذاجة قلباً ووجهاً ، كانوا يصفقون للخطيب — أى للريحانى — ويرحبون به وبعلمه . فازدادت الرغبتان ، رغبتهم فى التعلم ورغبتى فى التعليم — بارك الله فىّ وفيهم . »

« وتبعت الرحلات العربية رحلات أميركية ، على أن نكبة فلسطين بالصهيونية نقلتنى من التعميم إلى التخصيص ، دفاعاً عن إخوانى العرب فى وطنهم الذى يريده اليهود وطناً قومياً لهم » .

إلى أن قال : وهذا اللبنانى العربى يحمل الترس والرمح — كما حملهما ضون كيخوتيه ده لامنشا حقبة من الدهر ، فى سبيل العدل والفضيلة — على معاقل إسرائيل ، على حصون يهوذا. ويلك يا نيويورك ، ويلك ، اكتبى الحجة لليهود بماء

الذهب ، وسجليها فى سجل الصيارفة ، والكهان ، ومثلى رواياتها بالأفلام والكلام ، على ألفى مسرح وشاشة » .

« وبعد ذلك ؟ ماذا بعد ذلك ؟ ستستفيقين ذات يوم قبل صياح الديك ، وستصفرين صفير الهول والهلع ، ستسمعين صوتاً يناديك ويقول : صدق العربى البار ، الحق أصدق أنباء من الدولار ! « المغرب الأقصى صفحة ١٠ » .

والغريب من أمر هذا الرجل أن اندول كانت تدعوه لتسمع أقواله فيوبخها ويؤنبها ، ويختم كلامه بالدعاء للعرب . فها هو فى المغرب الأقصى يداعب المقيم العام الإسبانى فيجيبه المقيم العام : « اسأل نفسك يا ريحانى ، إنك تحمل منذ أربعين سنة الرمح الذى حمله ضون كيخوته ، وأنا مثلك — حامل ذلك الرمح — إننا إخوان . وإن لنا فى العالم ، على ما فيه من المنكرات ، إخواناً . . . . المحبة يا ريحانى تحل مشاكل العالم كلها ، نعم لولا محبتى للعرب لما استطعت أن أقوم بعمل واحد فيه شىء من الخير الكبير » .

أما أمين فيختم هذا الفصل بهذا الدعاء الصادق : « جمع الله كلمة العرب ، فيضىء نورهم مرة أخرى فى العالم » (ص ٣٩٦)

وبلغ من عروبة أمين التى كان فيها عربياً أكثر من سادة العرب أن دعته الأحزاب الفلسطينية للتوسط بينها فى أمر الصلح ،

كما جاءه ، من قبل ، عام ١٩٢٤ ، وزير خارجية الحجاز موفداً رسمياً ليتوسط فى الصلح بين الملك حسين والعاهل السعودى.

والرسائل العديدة التى عنده من ملوك العرب تؤيد ما نزعم ولو أن هذه العجالة تتسع لها لذكرنا الكثير منها ولكننا نكتفى بشىء من مكتوبى الإمام يحيى :

« ويسرنا إرسال نسخة من المؤلف إنشاء الله بالواسطة التى وصل بها الكتاب ، وقد وصل ما أتحفتمونا و إننا نهدى لكم التشكر وحسن الثناء؛ لما تقومون به من الأعمال الخيرية وخدمة العنصر العربى ووحدته التى سيحقق الله وجودها الفعلى فى الزمن القريب ويسرنا دوام مواصلة تحريركم البديع ونسأل الله لنا ولكم التوفيق إلى أقوم الطريق ١٥ رجب ١٣٤٣ » ..

وفى كتاب آخر يقول الإمام للأمين : ولا تدعوا ممكناً فى رعاية الجامعة العربية وما ننال به حقوقها المغصوبة وقول الحق مقبول ينتصر له ذوو العقول .

وقد كتب إليه الأمير شكيب أرسلان من جنيف عام ١٩٣٩ فى ١٨ شباط ما يلى :

« وأصل إن شاءالله إلى بيروت فى أوائل مارس ، وبعد أن أبقى فى الشويفات جمعة من الزمن أتوجه إلى الشام لتسلم عملى الجديد رئاسة المجمع العلمى ، وفى آخر الصيف قد أعود إلى

جنيف لأن بقائى فى هذه الوظيفة موقوف على تصديق المعاهدة السورية الأفرنسية ، فإن انتهى الأمر بعدم تصديقها فلست مقيماً ببلاد تحت انتداب الأجانب أيًّا كانوا . »

وكتب إليه سعيد العاصى عن جده عام ١٣٤٣

« بعد اطلاعى على كتاب ملوك العرب علمت بأنكم رسول الوطنية فى عصرنا ولو أنكم تغاليتم فى ابن سعود . »

ومن مونتريال كندا جاءه كتاب من السيد شاهين عبود بتاريخ ٣ حزيران ١٩٢٩ نقتطف منه هذه العبارة :

«أما وللعرب عاطفة الريحانى وثباته وقلمه وروحه الشديدة الإيمان بالوحدة التى يسعى إليها كل ذى ضمير حى ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . »

أما الصحف والمجلات العربية الكبرى فأكبرت عمل الأمين وجهاده فقال المقتطف عن كتابه «حول شواطئ البلاد العربية» ما يلى :

« شد الريحانى رحاله إلى بلاد العرب فى ١٩٢٢ مؤثراً شظف العيش على نعمائه فى دور العالم الجديد ، لأن له غرضاً يختلف عن أغراض سابقيه الأعلام ، دومى وبالغريف وبوخاردت وبرطن وغيرهم ، وغيرهم . غرضه أن ينقل إلى ملوك العرب وأمرائها رسالة علوية ، هى رسالة الاتحاد والتعاون لعلها تكون

ركناً لتجديد الحضارة العربية وبعثها . وإن ما فعله في هذا السبيل والذى تقرأه فى كتبه الإنكليزية (ابن سعود ، بلاده وشعبه) وفى (صحراء وأعالى البلاد العربية) ، وهذا الأخير (حول شواطئ بلاد العرب) لأنصع دليل على تلك الجهود التى بذلها فى سبيل الوحدة . وإنك لا تقع ، فى كتب الريحانى على الوصف المضجر الذى تقع عليه عادة فى كتب الرحلات ؛ لأن الريحانى الفيلسوف الأديب يجمع بين الوصف الشعرى والحكمة والفلسفة والسرد الروائى والتقرير العامى فى فصل واحد . فنقرأ الكتاب كما تقرأ الرواية الأخاذة .

وكتبت اللطائف المصورة عدد ٦٩٤ السنة ١٤ .

« لا نخطئ أو نغالى إذا قلنا إن ليس بين أبناء اللغة العربية من خدم بقلمه البلاد العربية بوجه عام ، ونجد والحجاز وملكهما بنوع خاص ، بقدر خدمات الأستاذ الرحالة الفيلسوف السيد أمين الريحانى . سواء أكان بمؤلفاته الإنكليزية والعربية ، أو بما نشره فى أمهات الصحف والمجلات فى أميركا وأوربا ومصر وسوريا »

وكتبت مرآة الغرب فى نيويرك فى مراجعة كتاب الريحانى الإنكليزى (حول الشواطئ العربية) :

« إن حول الشواطئ العربية ، من خير ما يجرى به قلم

باعتبار اللغة والتفنن وسعة الاطلاع وغزارة المادة. إلا أن الريحانى عربى أكثر من كل قرشى وقحطانى وعدنانى ونجدى ويمانى وحضرى وبدوى معاً . وله فى سياسته ومبادئه ملء حريته وكل حقه إذا هو لم يناقش اللبنانيين حساباً يجهله أو يتجاهله . إن كتابات الريحانى فى العرب وممالكهم وأمرائهم ومشايخهم أفضل من كل ما كتب فى الموضوع لأنها خلاصة أفضل ما كتب ، ولولا تعصب المؤلف لهذه الأمة الكريمة التى تحتاج إلى النقد فوق ما تحتاج إلى الاطراء لكانت كتاباته خالدة ، وهى بدون شك طويلة العمر . »

وأصدر الريحانى كتاب « النكبات » فحمل الكثيرون على المؤلف فكتب الكرملى يقول :

«إن غرض الريحانى من كتاب النكبات هو أن يفتح أعيننا على الماضى لنعتبر لا لنتغنى ونعيش فى خيال ما فعله آباؤنا . فما كان عليه الآباء من الرفعة ، كما قال جمال الدين الأفغانى ، لا ينفى ما نحن عليه اليوم من الخمول والضعة .

كتب الريحانى النكبات ليفتح عقولنا على حقائق مخزية لنحاول نحن أن نكتب صفحة خالدة أجمل من الصفحة التى كتبها لنا أسلافنا فى سوريا . »

أمين واليسوعيين :

وشاع أن أمين الريحانى قد أسلم فكتبت « البشير » فيما كتبت هذه العبارة :

« فما قول فيلسوف الفريكة بهذه الرواية ؟ أيثبتها أم يكذبها؟ وإذا كان أسلم أيكون أميناً على مذهبه الجديد كما كان أميناً على نصرانيته ؟ ! »

أما الريحانى فكتب يجيب عند ما سئل عن هذه الإشاعة بما يأتى :

«ماعلمت بهذا الخبر إلا يوم دخولى دمشق ، والذى أعتقده أن مصدر هذه الإشاعة هو كتاب أرسلته إلى الصديق سليم سركيس يوم كنت فى ضيافة ابن سعود وقد جاءت فيه هذه العبارة : على أننى إذا وجدت القضية العربية بحاجة ، لأن (أتوهب) فسأتوهب . على أنكم تعلمون أننى رجل أعتبر جميع الأديان محصورة بمعرفة الله ، فأكون قد أسأت إلى سمعة ملوك وأمراء العرب الذين زرتهم إذا قيل إننى اضطررت إلى الدخول فى الإسلام لأتمكن من التقرب إليهم . ومع كل هذا فلا أنكر أننى أمام هدوء البادية وعظمتها ، وتلقاء ما كنت أشاهده من انعكاف جميع الوهابيين على الصلوات الخمس ، يومياً ، حتى

كنت أجد نفسى وحيداً فريداً فى وقت من أوقات الصلاة التى لا يعفنى منها هناك لا صغير ولا كبير . استولت على عاطفة حب مناجاة الله فألفت لنفسى صلاة خصوصية كنت أتلوها كلما وجدت نفسى فريداً والقوم فى عبادة ربهم . والصلاة هى « النجوى ») .

ورغم ما كان بين أمين الريحانى وبين اليسوعيين من العداء المستحكم فإنهم عند درسهم فى أميركا كتاب مسالك النفس الذى وضعه فى الإنكليزية لم يتكلفوا إلا إظهار الحق فقالوا :

« مسالك النفس مقالة كتب بعضها فى أميركا والبعض الآخر فى سوريا ، والمؤلف يعالج مشاكل حياتنا اليوم واضطراباتها وينبهنا إلى وجوب محاسبة أنفسنا ، ويقول إن القلق المستولى علينا إنما هو ناشىء عن التكالب فى سبيل الماديات . ها هنا مصدر الاضطرابات فى الحياة الاجتماعية منها والدينية والاقتصادية .. فلو أن المؤلف أمسك قليلا عن عدائه للكنيسة عداء يكاد يكون ڤولتيرياً (نسبة إلى ڤلتير) وقلل من الانتقاد لها ، وأكثر من التسخط على ماديات هذا الزمان لكان يصل صوته إلى القلوب والعقول فينفع برسالته أمة استحوذ عليها القلق والاضطراب » .

ثم كتبت فى مجلة المشرق فى (أيار ١٩٣٤) تقول : «لا نعرف أديباً خدم بلاده والأقطار العربية بأسرها كأمين الريحانى ،

ولو كانت خدماته مقتصرة على المؤلفات التى وضعها فى اللغة العربية لتساوى مع عشرات الباحثين من أبناء الوطن الذين يكتبون فى محيط ضيق . ولكن الريحانى خدم بلاده ولغته بنقل أمانيها وآدابها إلى لغة الإنكليز ». فتعرف الأميركان والإنكليز على منتجاتنا الأدبية وتمنياتنا الوطنية » .

وفى هذا المقام أرى لزاماً على أن أذكر أن كتابات أمين الريحانى قد نقلت إلى أكثر من خمسة عشر لساناً ، أما ما طبع من الفصول التى حبرها أمين بالقلم الإنكليزى فلا يقل عن عشرة مجلدات ، ولكنه لا يزال منثوراً هنا وهناك فى زهاء مئتى صحيفة ومجلة إنكليزية كانت تتسابق إلى نشر هذه الآثار .

أمين والانتداب

كان أمين عدو الانتداب رقم واحد ، فبعد ثورته على الشعر الباكى التى كان لها ما بعدها ، ألهبت قرائح الأدباء والمتأدبين فحملوا الأقلام والنبابيت ، هذا مع الريحانى وذاك مع الأخطل الصغير ، وسالت بأعناق الفصول أباطح الصحف... ثم لم يشأ الأمين أن تقف تلك المعركة الأدبية عند ذاك الحد فأصدر كتاباً عنوانه « أنتم الشعراء » فانبرى للرد عليه ثلاثة كتاب بكتاب عنوانه : أجل نحن الشعراء . وإذا تأملنا النهضة

الأدبية اليوم رأينا الجيل الطالع يريد أن يتوجه الأدب فى الطريق النضالية التى شقها الريحانى .

أعلن أمين تلك الحملة الشعواء فى حفلة الجامعة الوطنية بعاليه عام ١٩٣٣ وغمز من قناة الانتداب على سمع الكونت دى سالان الذى كان يمثل المندوب السامى فيها . ظن الناس بعد سماع تلك الخطبة النارية أن سيكون حظ أمين النفى ، ولكن لكل أجل كتاب . أجّل النفى إلى ما بعد خطبة ألقاها الريحانى ، بعد قليل من الزمن ، فى بيروت ، قال فيها : « قد انتقلنا وما تغيرنا ، إلا إذا حسبنا الرجوع إلى الوراء تغيراً . من عهد عبد الحميد إلى عهد عبد البعل ، ومن ظلم ظاهر إلى ظلم خفى ، من ظلم مختل إلى ظلم منظم ، ومن ظلم يحمل النّبوت والكرباج فتتبعهما الد س ، إلى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات ... من استبداد يمنح الامتيازات ليدفع ديونه الأوربية إلى استبداد يستثمر الامتيازات ليزيد ثروته ويفقر البلاد . من استبداد يفرّق ويسود لمجد الدولة إلى استبداد يفرّق ويسود للاستعمار . من عبد الحميد إلى الانتداب ، من عبودية أدبية روحية إلى عبودية اقتصادية مادية . من عبودية بطنها ملآن إلى عبودية المجاعة ، من خازوق واحد قائم تحت عين الشمس إلى خوازيق تنجرها لنا الليالى ، من دستور منشور إلى دستور معلق .

من عهد عبد الحميد إلى عهد دى مارتل ، هذا العهد السعيد ، هل تقدمنا ؟ هل ارتفعت أخلاقنا ؟

كان عندنا حانات وخانات فصار عندنا مرابع وأرتيستات . كان عندنا كازينو واحد للقمار فى صوفر ، فصار عندنا كازينات ، وحلقات لسباق الخيل والبنات . . .

ولما فرغ من التعداد قال : منذ ثلاثين سنة وأنا أضرب الطينة بالحائط ، فهل الحق على الطينة إذا كانت لا تلصق أم على الحائط ، أم على اليد الضاربة ؟

لا أجيب على هذا السؤال ولكن قبل أن أستودعكم الله أقول لكم هذه الكلمة ، أقول لكم كلمتين ، ثلاث كلمات . الأولى : إن خلاص الإنسان بيده ، انهضوا ينهض الله معكم . الثانية : إن الأمة التى تكثر فيها الطفيليات لا تعيش طويلا . فكروا بالإنتاج قبل أن يهلككم الاستهلاك .

أما الكلمة الثالثة فهى هذه : جارك القريب خير من أخيك البعيد . بل خير من أملك الحنون البعيدة ، والسلام عليكم »

قال أمين قبل أن يختم خطابه « أستودعكم الله » فما كاد يخرج من بوابة التياترو الكبير حتى اعتقل ونفى ردحاً من الزمن ، فكتبت إليه بعد العودة رسالة فيها مداعبة مرة ، فأجاب عليها

برسالة كانت نبؤة ، وقد نشرت روسماً — كليشه — فى ديوانى زوابع ، فارجع إليها إذا لذّ لك أن تطالعها لتعلم أن هذا الجبار لم يلق سلاحه بل كان سيفه مخدته .

أمين واللغة

قضى أمين حياته فى صراع مع لغة الضاد ، آلى على نفسه أن يجيد البيان فيها فكان له ما أراد ، ولكن كتابته لم تسلم من هنات هينات ، كان يتمسك بها خصومه وينعون ذلك عليه . وها هو يحدثنا عن نفسه فى هذا المجال في مقدمة كتابه ملوك العرب :

« عدت إلى بلادى وكنت لا أعرف من لغتى وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت فى سراديبها دون أن أرثى لحالى . وبينا أنا أتخبط فى دياجى اللغة عثرت على كتاب شعر — لزوميات المعرى — أنسانى الكسائى وسيبويه ، وكل من علم حرفاً فى البصرة والكوفة » .

وقال فى رسالة يجيب الأستاذ جرجى نقولا باز : « لقد نقحت وصححت مقالاتى العربية جهدى . . . أى والله حينما تمر فى مخيلتى الفاء السببية يعترينى صداع ، شديد ، ولما أفتكر فى الفرق بين المفعول به والمفعول معه والمفعول فيه يحل المغص بى ،

ومغى ، وفى ، فأود لو عفانى الدهر من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين » .

وقد آلمه نقد كتاب له لم أعرف أيها هو لأنه لم يسمّه فى الرسالة التى عثرت عليها ، كما لم يسم المنتقد . لا بأس فى نشر هذه الرسالة التى تدل على صراحة أمين .

« صديقى القديم العزيز :

السلام عليك ورحمة الله ، لقد رابنى أمر فى انتقادك (لغة الكتّاب) وعلى الأخص لغة المجددين منهم ، فهل لك أن تنير الذهن منى فتزيل الريب والحيرة ؟ ما رأيتك مرة تنتقد لغة كاتب من كتاب المسلمين فهل المسيحيون ، وحدهم ، يمتازون بهذا الشيء الذى يسمونه العبث باللغة ، أو ليس بين المسلمين النوابغ من يشدّون بالذنب مثلنا وتظنون أنهم ملكوا الناصية ؟

أنر ذهنى ، زادك الله نوراً ، أليس فى الكتاب المسلمين من يغلط غلطة واحدة لغوية ، صرفية أو نحوية ؟ ! أليس فى كتاب المسلمين من تقصر مبانيه ، ولو فى فترة من فترات الإلهام والإبداع ، دون معانيه ، أو معانيه دون مبانيه ؟ عهدتك عادلا وعهدتك حكيماً ، ولكنى أراك فى هذه الأيام مثل سواك ، كمن هم دونك علماً وأدباً ، تنقاد إلى ذلك الروح الخبيث الذى لا يرى فى صلابت الحياة الأدبية شيئاً يوازى ذرة من الميراث

القديم . . . على أنى أسألك ، وأرجوك ، وأتوسل إليك أن تذكرنا ، وأنت فى نعيم اللغة من الخالدين ، اذكرنا من فضلك وتصدق علينا بشعرة واحدة من تلك (الناصية) الكريمة ، ناصية اللغة ، لنحرقها عندما نكون فى خطر من غارات الجهابذة اللغويين والسلام عليك »

لا أطيل الكلام هنا لأن الريحانى مات وفى قلبه شىء من « حتى » .

وصية أمين

كتبها فى أيلول ١٩٣١ وهى ليست وصية لفرد من الناس بل لأمة عاش أمين لأجلها ولذلك تجد فيها نقاطاً فلسفية اجتماعية سياسية دينية . جاء فى الوصية الثامنة ما يأتى :

إن الوحدة العربية المؤسسة على القومية لا على الدين هى وحدة مقدسة فأوصيكم بها . واعلموا أن لا خلاص للأقليات من ربقة الأجانب ، أو فى الأقل من التدخل الأجنبى ، إلا باتحادهم مع العرب ، بل بامتزاجهم بالأكثريات امتزاجاً عقلياً أدبياً روحياً ، فتصبح البلاد ولا أكثريات فيها ولا أقليات . واعلموا كذلك أن لا مستقبل مجيداً للعرب ولا وحدة عزيزة شاملة بغير الحكم المدنى الديمقراطى القائم على العدل والمساواة

بالحقوق والواجبات .

واعلموا أخيراً وتأكدوا أن فى الدولة العربية الكبرى ستضمحل العصبيات الدينية والطائفية كلها ، أو ستنحصر فى دوائرها الخاصة بها ولا تتعداها . وسيقوم مقامها فى الوطن عصبية الجنس واللغة والثقافة ، وقد ارتبطت كلها بالمثل الإنسانى الأعلى ، وبالمصلحة المشتركة المتبادلة بين الأهالى جميعاً على السواء »

وفى الوصية (١٤) : «إن أنوار العالم القديمة على وشك الانطفاء كلها . فتيقظوا وراقبوا المصابيح الجديدة وسيروا فى مقدمة المستنيرين بأنوارها » .

وفى الوصية (١٩) «لا أظن أن المسيحيين والمسلمين أو اليهود والبوذيين يسارعون ويتسابقون للصلاة على جثمانى . ولا أظنهم ، إذا فعلوا ، ينفعوننى لأنى لا أعتقد بنفع الصلاة لغير صاحبها ، ولا أعتقد بنفعها إلا إذا كانت محض روحية ، أى محصورة فى التأمل ، ولا تتجاوز إلى الطلب والاستغاثة . فالتأمل الروحى هو للنفس كالنور للحياة النباتية ، فتتغذى به أزهار الألوهية ، ويفوح طيبها فى بساتين الحياة . وكل امرئ من هذا القبيل هو كاهن أو إمام نفسه ، يفيدها باجتهاده ، ولا يفيد سواها . أما الصلاة التى هى طلبات يوجهها المرء إلى خالقه فإنما هى صبيانية ، بل فيها شىء من الجحود ، كأن الله لا يعلم

بما فى القلوب ، كما جاء فى الأديان كلها . أو كأنه ، سبحانه وتعالى ، مثل الإنسان ينسى أو يتناسى . فإذا كانت نفس الميت، مثلا، فى حاجة إلى الصلوات ، فقد أصبح أقرب إلى العلم الإلهى مما كان فى الحياة ، وقد أصبح ولا شغل يشغله عن الصلاة ، فلاتكلفوا أنفسكم إذاً أيها الآباءالمحترمون وأيها الأحباء. وبكلمة بسيطة صريحة وجيزة لاأريد أن يصلى على جثمانى أحد من رجال الدين أو غيرهم »

الريحانى الكاتب

دب أمين الريحانى ونشأ على كتف واد رهيب من أودية لبنان ، وترعرع ، كما رأيت ، كأكثر نوابغنا فى مدرسة غير ذات جدران ، فى ظل السنديانة والهيكل . ثم ارتقى إلى مدرسة أعلى رتبة فألم بمبادئ اللغتين العربية والفرنسية ثم التحق بأبيه فارس المهاجر قبل أن بلغ رشده . وفى أمريكا أتقن اللغة الإنكليزية فبرع فيها ، وبعد محاولات لم يفلح فيها احترف الأدب فصار فيه كأخى الخنساء ، علماً فى رأسه نار . لم تكن شهرته فى الشرق أقل منها فى الغرب ، بل كان صلة التعارف بين المشرقين ، مسموع الكلمة عند التوأمين ، وكثيراً ما حاول الجمع بينهما ، وإن قال الشاعر الإنكليزى : « كبلنغ » لن يجتمعا .

كانت لأمين رحلات بين أميركا ولبنان فمن هناك إلى هنا ، ومن ههنا إلى هنالك . حمل إلى أميركا أكياساً من صوفية الشرق وفلسفته ، وجاء إلى الشرق بحمولة من (عملية) العالم الجديد ،

وصناديق من منتوجات حرة كتب عليها : سريعة الانفجار .
كانت رسالته أحياناً غير مرغوب فيها ولكنه فرضها على الناس فرضاً . له رسالة لا بد من أن يؤديها وحسبه‌ما يعلق‌منها بالأذهان.
فهو لا يلح على الناس ولا يلحف ، يقول كلمته ويمشى كما قلنا . يكفيه أن يدعك تفكر بما قال ليعتقد أنه خرج من المعركة ظافراً .

وجه كأنه وجه الفرزدق ، وعينان كحمامتين تجثمان على بركان فائر ، وأنف بين أنف ابن حرب وأنف بلقيس ، وفم صارم كأنه باب السجن . أذنان كمروحتين صغيرتين ، وجبهة كأنها مرج ابن عامر . هذا خلقه ، أما خلقه فلا يسف فى حديثه ولا يترمت ، هو بين بين فى معاشرة الناس ، لا يفتح الزجاجة فيفوح المسك والعنبر ، ولا يسدها سداً هرمسياً ، لم ينطق بكلمة فاجرة ينفر منها أشد الناس تمسكاً بالعرف ، لا تفوح رائحة أحماضه فى المجلس فتعمى وتصم .

منذ خطت يد الريحانى أول كلمة عربية أعلن الرجل استقلاله الناجز تفكيراً وتعبيراً . ظل فى مهب رياح التطور الفكرى حصة من الزمن يترجح بين صوفية مائعة ، وعملية حديدية . أما فى التعبير والأسلوب فما انفك يبدع قوالب خاصة حتى آخر ساعة . لم يبال أمين ، وشعاره : قل كلمتك وامش ،

بما يقوله غيره . لبس بذلته ولا يمنعه ما يقول الناس فيها ما دام هو راضياً عنها .

أعطى من السحر شيئاً كثيراً ، ولكنه سحر مستور غير مفضوح ، لا يشمتر بكرم فضاح كالتى رآها فى الصحراء تعبر النهر . ولا يسكت إذا وجد مجال القول ذا سعة . ليس فى كتابنا أصرح منه ولا أجرأ ، يطلب الحقيقة دائماً ، ويقولها كل حين . إذا قال صدق ، لا يوارب ولا يداجى ، يسكت حتى يستطيع الصدق . حاد المزاج نارى الشعور ، ولكنه ضابط نفسه . يخرج عاطفته الثائرة بأسلوب غير مبتذل . أشد سلاحه التهكم ، وتهكمه يؤلم ولا يضحك ، ترثى لمن يتناوله ذلك المبضع الذى ينحدر إلى الأعماق حيث اللب والرعب والحقد كسهم البحترى الذى أطلقه على ذاك الذئب .

أمسك بالحبل من طرفيه منذ الساعة الأولى . ترجم رباعيات أبى العلاء إلى اللغة الإنكليزية ، وأخرج إلى العربية « التساهل الدينى » و « المكارى والكاهن » و « المحالفة الثلاثية » فكأنه وضع بها من حيث لا يدرى أساس رسالته التى تناولتها يد التطور ، فتذبذب حيناً كرقاص الساعة الهادى ، بين روح هائمة وجسد يرى فى الماده ملاذه . قد تجلت هذه المبادئ متحدة فى صلاته التى كان يتلوها — كما روى — فى البادية . بادية العربية السعيدة :

الريحانى فى هذه الصلاة رجل يريد روحاً وعقلا وجسداً ليؤدى رسالة بنى أمه ، رسالة العروبة الموحدة . رسالة الفلاح العربى وإحياء المجد العربى القديم . فقبل أن نظهر رسالة أمين النبيلة فلنر العناصر التى تؤلف هذه الشخصية الفريدة ، هذه العبقرية التى مرت فى سمائنا مرور الشهاب المتهاوى فروع الليل ، وشق أحشاء ظلماته . ثم عقبت ذلك النور الثاقب ظلمة ملطمة تكاد الكف تلمس جلدها .

إن حب الطبيعة هو العنصر الأول الذى تتألف منه شخصية الريحانى . فأمين ككل جبلى دب تحت الخيمة الكبرى تصبحه الشمس وتمسيه ، يصافحه النسيم ويضربه الهواء . يسامر النجوم والقمر ، وموسيقى الطبيعة تدغدغه بلا انقطاع . يتمتع طليقاً بجمال الفصول الأربعة ، فمن مرح الربيع إلى كآبة الخريف ، ومن جد الصيف إلى جهومة الشتاء. ولد حراً يغترف من عطايا الطبيعة ومواهبها ويخزن ما استطاع منها فى غضون عبقريته وجيوبها إلى الساعة المنتظرة ، ساعة الرسالة التى خلق لها ، رسالة الأدب الرفيع والنضال القومى فى الشرق والغرب . وقد عج بهذه العواطف شعره المنثور الذى أبدعه فى الأدب العربى ، فزادت به ثروتنا الأدبية وأصبح ميداناً مفتوحاً للذين لا يحسنون الشعر المقيد ، وأمين واحد منهم . فهذا الشعر الريحانى يعبق منه أريج الأزهار ،

وتحشرج فيه العواصف والأعصار ، حافل بأنين الناى وطقطقة الرعاة ، وزقرقة الرعاة ، وزقوقة العصافير .

فى هذا الشعر الذى تعرفنا به أجزاء الريحانيات الأربعة موسيقى شاعر ملهم ، وحنين واله ، لا أثر للتكلف فيه، بل هو صرخات نفس تتألم ولا تجد عزاء إلا فى حضن الطبيعة التى تتملق بنيها حيناً ، وتعض وتلبط أحياناً . موسيقى تبطنت شعر أمين المنثور الذى أملاه عليه وجدانه الثائر قبل أن ينفجر مصلحاً كبيراً ، وسياسياً مسموع الصوت نافذ الكلمة ، يقتحم المخاطر فى سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولكن كتابته فى الشؤون السياسية وشجونها هى من صميم قلب الأدب ، ففى الريحانيات وملوك العرب وكل ما كتب أمين ترى ما التقطه ذهن هذا الأديب الأصيل من مشاهد فرسمها أبدع رسم .

وإلى عنصر الطبيعة ينضم عنصران آخران يتصلان به ويتفرعان منه هما : المهاجرة ، والمطالعة . فالهجرة مدرسة الريحانى وجامعته الكبرى التى تلقى فيها دروسه وكان أستاذ نفسه . ففيلسوف الفريكة لم يتلق علومه فى الجامعات الرسمية ، هو ابن همة نفسه ، ابن رغبة فائقة الوصف ، نهم إلى الاكتشاف عن طريق البصر والبصيرة ، يتلقى الدروس حيث حل ، يرى وينتقد، ويحكم ويستنتج ، ويدرك ويدخر إلى حين الحاجة. ففى التأمل الذى

لا ينتهى ، وفى الاستكشاف المستمر فى الكتب والمتاحف ، وغرائب الدنيا وعجائبها التى شاهد جلها ، تغذى ذهن الأمين ورتع ، وأخرج البدائع والطرائف .

أما المطالعة فلا تسل عن عشق الريحانى لها . ولا تسل عن مغامراته فيها ، فالرجل لم يتعلم لغته على أستاذ ، بل عكف على مطالعة آداب أمته بجشع ورغبة كما ينبئنا فى مقدمة «ملوك العرب » . وظل يروض نفسه عليها حتى أسلس قيادها . إن اطلاع أمين الواسع العميق يبدو فى ملوك العرب حيث لا يغفل عن شعر أو نادرة يؤيد بها قوله ويدعم كلامه . وقد يأتيك بألفاظ وضعية لا تنقاد فى الاستعمال إلا لجهابذة اللغة والأخصائيين فيها . يدلك هذا الاستعمال والاستشهاد على سعة اطلاعه ، كما يدلك (اللحن) — وهو نادر فى ملوك العرب ، كثير فى (الريحانيات) — على أنه معلم نفسه كما قال .

فمن هذه العناصر الثلاثة تتألف شخصية الريحانى ، فإذا أضفنا إليها قريحته الوقادة ، ولسانه الذرب ، ونفسه اللينة العريكة ، رأينا الرجل العربى الفذ الذى أجله ملوك العرب وكرموه ، ووقره الأدباء والشعراء وعظموه . لم يذق أديب عربى فى عصرنا الحاضر ما ذاقه الريحانى من تعظيم وتبجيل ، فبيته كان مزاراً إذا حل . وهو كان موضوعاً يتساجل فيه أكابر الشعراء إن رحل .

لقد مر أمين فى أدوار عديدة ، فحبه الطبيعة واطلاعه الواسع على آداب أمته وتاريخها ربطه بوطنه ، ونفسه الأبية التى تكره التدجيل والمحاباة والرياء سلخته من مدنية الغرب وجذبته إلى أمته ، فأطل عليها من تلك النافذة ، نافذة حب الوطن الذى تثيره محبة الطبيعة . إن ضوضاء أميركا يكرهها رجل نشأ كالريحانى ، ولهذا ظل يعمل مسيراً بعوامل باطنية حتى أفلت منها عائداً إلى بلاده يدعو إلى الاتحاد والإخاء والحرية .

فى المحالفة الثلاثية

قال الحجاج فى إحدى خطبه النارية : إن العلم يوشك أن يرفع ، ورفعه ذهاب العلماء . لقد كادت أقطارنا العربية أن تفقد هؤلاء ولكن ما نرجوه من الأحياء يحملنا على مخالفة رأى الحجاج . إن ثلاثة آلاف سنة تكوّن أرزة خالدة فى رأس لبنان ، إما دماغ كدماغ أمين الريحانى فلا أستطيع تحديد الزمن الذى يصنعه .

عرفته صلباً كالألماس وإن لم يكن له بريقه ولمعانه . ربطته بالمطران الزغبى صداقة غير حائلة ، ولكن ذاك المطران التقى لم يستطع أن يأخذ من عقيدة صاحبه لا حقاً ولا باطلا . بقى المطران

فى حظيرته يرعى خرافه ، وظل أمين جاداً وراء قطيع يرعاه فى مروج الفلسفة الحديثة .

الريحانى وجه لبنانى محض استمد لونه من أديم الجبل . مربوع القامة كبير الهامة . كان وجهه ثعلبياً فى فتوته وشبابه، ثم استحال وجه أسد غضنفر حين اكتهل وحبا إلى الخمسين . ترفرف على محياه المهابة متوقراً ، ويقرب من القلب متبسما ، أما إذا حمى غضبه فشرارة من جهنم . . . يصيح ويماحك ويطفى سراجاً مشعلا . . .

تدارسنا أدبه تلاميذ ، وأول فصل عرفنى به ، قرأته فى المقتطف موضوعه « وادى الفريكة » . وفى جامعة العالم رأيت الريحانى ، أول مرة ، على منبر جمعية شمس البر ببيروت « ١٩ آذار سنة١٩٠٨ » . سمعته يخطب الناس فخلت أن عاموس النبي قد أفلت من بين الرعاة ليتنبأ قبل الزلزلة بسنتين . . .

علقت بذاكرتى عبارته هذه : الكاهن والطبيب والمحامى ثلاثة عقبان من بيضة واحدة . وارتسم فى مخيلتى يومذاك شكله القسسى أو الفلسفى : شعر مسترسل كما قال امرؤ القيس : غدائره مستشزرات . . . ولم تفارق مسمعى نبرات صوته الخورسى وحركاته المسرحية التى تلبس عبارته ثوباً جديداً ، وتودع فيها روحاً محيياً .

أمين ثائر متمرد ، هو رجل كفاح ومن كتاب المعارك . يثير خلفه ، وحوله ، وفوقه ، وتحته غباراً لا يشق ، يقول كلمته ويمشي ، ينفض نعله على عتبة كوخه ، ويعد حذاء جديداً لرحلة أجد . الريحاني مؤمن بأدبه ، واثق بأنه خلق أدباً جديداً رحمة بالناس ، وقد أشار إلى هذا حين ناجى جبران يوم عاد إلى وطنه محمولا :

« جبران ، أخي ورفيقي وحبيبي ،

إن للشهرة يوماً ، وللحزن يوماً ، والباقي للبنان ،

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون الذى يضمك اليوم ، وغداً يضمني إليه .

ومهما يكن من رسالة حملناها إلى الشرق والغرب فسوف ينصف الزمان .

ومهما يكن من أدب بدعناه ونشرناه رأفة بالناس فسيعدل المستقبل .

وإن ترابي ، غداً ، فى الفريكة يناجي ترابك فى الوادي المقدس .

ومن ظلال الصنوبر ، الذى سيظلل ضريحي ، سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، إلى ضريحك فى ظلال الأرز . »

إن شيئاً من هذا لم يكن . لا صنوبر ولا بلوط . قبر متواضع في العراء ، حدّه شجرة أو شجرتان لا أذكر ما اسمها ، وقد جمعنا رفاته في صندوق حين ماتت شقيقته سعدى ، لنوسع لها في ذلك المدفن العائلي في (الشاوية) .

يخلط أمين — دائماً — التصوف بالعمل المجدي ، يقدم (بزوراً للزارعين) وهو كبير الأمل بالغلة ، ما تنكب عن صراطه قط . أغراه لقب الفيلسوف فطرب وانتشى وتفلسف حتى في المواضيع التي لا تربطها بالفلسفة آصرة قربى . كان الإصلاح الديني هدفه الأسمى ، وأولى معاركه ذلك الخطاب الذي أذاع اسمه بين الناطقين بالضاد . ألقاه ليلة ٩ شباط سنة ١٩٠٠ ، فهبت بعده ريح الأمين وكتب إليه البطريرك الماروني مجاوباً :

« ما قلتموه في هذا الشأن ، وإن قلتموه عن مقصد حسن ، فهو خاضع لتأويلات عديدة . يمكننا التساهل من حيث الطقوس والعوائد المذهبية ، وأما الحقائق الموحاة من الله فلا يمكن التساهل بها مطلقاً . . . ثم إننا لم نستصوب ما قاله من اعترضكم ، في هذه المناسبة ، من الكلام الجارح الخارج عن حد الاعتدال » .

ونوهت الصحف العربية في العالمين بجرأة أمين فاشتد

ساعده ورمى . كتب « المكارى والكاهن » فارتقى فى سماء الشهرة درجات ، وأخيراً كتب « المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية » فبلغ الأوج . انقسم فيه الناس ، فأصبح فيلسوف الفريكة عند بعض ، والفيلسوف الصغير عند آخرين ، ولكنه ظل يقول كلمته ويمشى .

ثم كتب بلغة شكسبير فعرفه الغرب كما عرفه الشرق وصار من كبار الكتاب فى اللسانين السامى والآرى .

الريحانى هو أبو الشعر المنثور فى الأدب العربى ، وهو الذى مهد الطريق لجبران وعبدها ، ولكن جبران طار بهذا الأسلوب على أجنحة رياح الفن والإلهام ، ولم يقع إلا على أعلى الذرى .

الشعر المنثور بناء بلا زوايا ، فيه جمال مطلق . له أعداء الداء حيث وجد ، فعدوه لعبة يتلهى بها المقصرون عن الشعر (الرسمى) . وله أحباب أوفياء يرون فيه متعة لا ترى فى الشعر المقيد . فلا بدع ، إذن إن اختلف القوم عندنا فى هذا اللون الجديد فى الأدب . أذكر لك قول ناقد فرنسى راح يتهكم بهذا الشعر متمثلا بقول لافونتين بلسان الخفاش :

« أنا عصفور ، وهذان جناحاى . أنا فأرة ، فلتحى الجرذان ! »

ومهما يكن من شيء فأدبنا العربي مديون لأمين بهذا اللون الطريف ، إن النواة في أدب أمين محسوسة ملموسة . هو رجل كفاح قبل أن يكون صاحب خيال وشعر منثور مائع كشعر الذين قلدوا الريحاني « وأكلوا من جفنته ، وشربوا من إبريقه ، وناموا في خيمته » . كان الريحاني في كل ما كتب رجل كفاح وإن رأيناه يتدروش حيناً ويتصوف تارة . وفي كل أطواره كان يشتد كأن النبوة خلعت عليه مسحها .

ما اشتد ساعد جبران وتوغل في أدغال صوفية الشعر المنثور ، حتى رأينا الريحاني يطير عنها إلى قمة أخرى تاركاً لها رداءه كإيليا . فلم يقم منا ، بعد الشدياق ، من جالس ملوك الأرض والرؤساء مجالسة الند للند كالريحاني . حمل هذا النابغة العصامي لواء الشرق العربي في الغرب ، وفاق الشدياق في المعترك السياسي بقلمه الأجنبي . أبدى للعالم وللمستعربين من بني أمه وجه العرب النبيل بكل ما فيه من خطوط فارقة ، وعلامات مميزة ، فسمعت كلمته في أعظم نوادي الغرب وقصور الملوك والرؤساء . ظل أميناً لرسالته في الحقيقة والخيال ولم يحد عنها قيد شعرة ، ومن قرأ جميع ما كتبته يده يرى أنه لم ينقض بنداً واحداً من بنود المحالفة الثلاثية . وإذا صح النبأ الذي نشرته جريدة البشير الغراء يكون الذي « انمسح » واعترف وتناول هو أخوه ألبير وصهره

يوسف صادر وصديقه إبرهيم حتى . أما أنا فأقرر أن الريحانى لم ينقض حرفاً من المحالفة ، فقد عرفته صلب العقيدة . ثم ظهر فى تركته — ما ترك إلا الحبر والورق — ما صدق ما زعمت .

* * *

يسأل الكثيرون من الأدباء والمتأدبين عن المحالفة الثلاثية النادرة الوجود ، وهذا الكتاب عاد إلى بعد هجرة طالت ثلث قرن ، استعاره منى الخورى ى . ع . فراودته نفسه أن يمتلكه ، وبعد أخذ ورد وتوسط محام صديق لى وله (ا . خ) رجع الخروف الضال إلى قطيعى ، وهو الآن فى مكتبتى ، محوط باسم الله والحرية .

الكتاب يحمل هذه العبارة بخط الريحانى « هدية المؤلف إلى صديقه مارون عبود . الفريكة ٩ حزيران سنة ١٩٠٨ » . أجل قد صرت، بعد تلك الزيارة الطريفة التى تحدثت عنها فى كتابى « مجددون ومجترون» بمناسبة الكلام عن فليكس فارس، صديق الأمين .

المحالفة الثلاثية كتاب رمزى تلبس فيه الحيوانات الجبب والطيالس : الحصان والبغل والحمار والثعلب والجمل والثور ، ويتخلقون بأخلاقنا ويتحدثون بلغتنا . أما حكايته فهى أن هذه الأسرة الكريمة أشفقت من زوال مجدها وأبهتها واندحار عظمتها

أمام البخار والكهرباء والقطار والأتومبيل . فدعاهم الحصان سيد هذه البطون والأفخاذ إلى مؤتمر يعقد فى اسطبله ليبحثوا عما يدعم سلطانهم فلا ينهار . وكان اجتماع طريف تبادلوا فيه الأنخاب وشرحوا المعضلات الكبرى . فظهر فى المجتمع الثعلب ـ هو أمين ـ فأنكر وجحد ، وأنذر وحذر ، وازدرى ما يحترم أولئك . وأخيراً أخذ الثعلب المتمرد بجريرة الكفار المارقين ، وحوكم أمام المجلس كجاحد ، وساموه أشد أنواع التعذيب . وأخيراً قضوا عليه بالموت ـ إلا إذا تاب ورجع واعترف وآمن بما جحد ، ولكن الثعلب لم يرجع عن غيه :

الجلاد ـ ألا تريد أن تنكر اعتقادك إذن .

الثعلب : إنى أموت لأن الحيوانات نيام ، أما أنتم فستموتون لأنهم سيكونون أيقاظاً .

فألقى الجلاد به فى النار قائلا : « فلتكمل مشيئة الله . »

وكذلك قال الثعلب الذى يعتقد بالله وحده .. ثم ظهر الأسد ـ المعنى هو الأسد الذى انتصر من سبط يهوذا ـ فخاطب الحصان والحمار والبغل : أطلب رحمة وليس ضحية ، وقال وقال ... ثم تلبدت السماء بالغيوم وغاب الأسد فى سيارته عن الأبصار .

قد يقال : ولماذا اختار أمين السيارة ألم تكن الطائرة أنسب؟ نعم يا سيدى . ولكن هذا الكتاب قد كتب قبل ميلاد الطائرة

وذريتها الكريمة . . .

أما الحصان والبغل والحمار فذهبوا إلى اسطبلهم منكسين وجوههم خاشئين . وبينما هم ذات يوم ينؤون تحت أحمالهم ، على طريق السكة الحديدية ، إذ صفر قطار العلم القائد عربات البخار الكهربائية والاختراعات ومر عليهم فسحقهم سحقاً ، وتطايرت رؤوسهم وبقايا أجسادهم فى الجو وتشتت أعضاؤهم المتقطعة على طريق التمدن الحديث .

قلت لك إن كتاب المحالفة الثلاثية نادر ، ولهذا سبب لا بد من اطلاعك عليه . زعموا أن ناراً سقطت على مطبعة الهدى التى طبعته سنة ١٩٠٣ فاحترق . ومنهم من يغرب فى الأسطورة فيقول : إن النار أكلته وحده ، كما كانت تأكل الذبائح فى عهد بنى إسرائيل ، ومنهم من قال : إن المطبعة والمطبوعات احترقت جميعاً .

سيان عندى هذا وذاك . أن جزة جدعون حكاية طريفة سواء إن ابتلت وحدها أو تبللت الأرض دونها ، فكتابى عندى .

كان أمين حين كتب المحالفة الثلاثية رطب العود فصاحة وتركيباً ، أما عقله فناضج ، وهو فى كل طور قلما بالى بسيبويه والفيروزابادى ، بيد أن لغته قد صحت فى آخر العهد فعبرت بالتدقيق عما يجول فى ذاك الرأس الكبير .

من حسن حظى أنى عدته بعد كبوته المشؤومة ، فرأيته فى مستشفى ربيز ممدداً على سريره . خلت المصيبة هينة ، ولم أكن أدرى أنها النومة الأخيرة فلجأت إلى النادرة كعادتى معه ، كلما التقينا ، فقلت له :

أتركب يا أخى فى الستين كما كنت فى العشرين والثلاثين.
فابتسم ابتسامة جارحة وقال : ما كل الوقعات تكون فى الجورة ، روح بقا .

فقلت له : كل البلاء فيها ومنها يا أمين . . . ورحت من عنده مطمئناً إليه حتى نعى إلى فى عين كفاع ، بعد مفارقته بأسبوع . ثم سمعت ما خف بسرير موته من أقاويل فتذكرت قوله : الكاهن والطبيب والمحامى ثلاثة عقبان من بيضة واحدة .

أما العقاب الأخير فما انقض على هذه الفريسة ، لأنها لم تترك شيئاً . اللهم إلا ذكرى العبقرية الفذة الخالدة .

لا بد من واحدة .

زرت مرة أم أمين ، فى غرفتها الخاصة ، فكانت جدرانها معرض صور قديسين وقديسات كأنها حائط العازارية قبلما هدموه . كان قد ثقل سمعها. فقال لى أمين بعد أن استعرضنا تلك الإيقونات وسميتها له بأسمائها ، لأنى اختصاصى : ما رأيك يا مارون ، سنبقى لذكراها بعد الوفاة هذه وهذه .

قلت : ولماذا أثرتهما ، قال : لأنها تخصهما بعبادة .

قلت : تريد أن تقول بعادة ، فنكزنى قائلا : وطى صوتك .

وعدنا إلى الحديث معها فوعدتها وعد حر بالغفران الكامل عند الموت ، بدون اعتراف ومناولة شرط الندامة بقلبها ، فتهللت وتعللت . ولكنى لم أبر بوعدى ، فطالبنى أمين بذلك أكثر من مرة لأن أمه تلح عليه — ليتك تقرأ الخطاب والجواب فى هذا الصدد .

أما أنا فألححت كثيراً على السيد الفونز وبيرتى فى المدينة الأزلية ليرسل لى باسم أرملة فارس الريحانى صورة الأب الأقدس حاملة بذيلها البركة الرسولية والغفران الكامل « إينار تيكلوهو رتيس » ولكن صاحبنا لم يرد جواباً ، فتأكدت أنه نقل فلم يصله كتابى . ثم أكد ما ظننت رجوع الكتاب المسجل والحوالة وقدرها واحد وعشرون ليرا .

أسفت جداً لأن أم أمين ماتت ولما تفز بهذه النعمة ، وأن تكن قد لا تحتاج إليها لصلاحها وتقواها . والتقينا مرة بعد موت تلك الأم الطاهرة فقال لى أمين : ما قولتك ، أتدخل أم أمين الديار السماوية بدون (باصك) . . . فأجبته : إذا قالت إنها أمك فمار بطرس لا يردها .

فانتفضت يد أمين — التى كتبت المحالفة الثلاثية فأصيبت

بما أصيبت ، وكركر فى الضحك ، وكان صمت . . .

وقصارى القول أن فيلسوفنا عاش حراً ومات حراً ، وما أقل من ترافقهم مبادئهم كاملة حتى يبلغوا المأوى الضيق .

لست أزعم أنى أحطتك علماً بالريحانى ، فنى ريحانياته وكتب رحلاته ، ورواياته خير كثير وسوف نمر بها عجالى ، كما مر أمين بالدهناء .

إن تآليفه أشبه بحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها القديم ، ومنها الحديث ، من زمن اليونان والرومان إلى عصر الإنكليز والأميركان ، من الكبش والمنجنيق إلى الطائرات والدبابات ، ومن المدى الحجرية إلى الخناجر الفولاذية ، والسيوف اليمنية ، إلى القنابل الديناميتية — لم تكن الذرية والهيدروجينية خلقت بعد — فيهاجم بها من مرامى حصنه كل من خفق برأسه أمام مرقبه العالى . ولم ينج الحكام والمستعمرون من قذائفه هذه فأذاقوه طعم التشريد والإبعاد .

أما أسلوب أمين ، أسلوب الشعر المنثور وغيره ، فله وحده ولا يد لغيره فيه ، وبه غزا العالم العربى فترة من الزمن ، فكان فى كل قطر حلته ركابه منارة تتجه نحوها الأنظار ، وقد أقر له بذلك أبطال الفكر وقادة الأقلام فى كل قطر ، حتى فى لندن ونيويورك . كان أديباً عالمياً ، وسفيراً عالمياً عربياً شرقياً

ـــ مسخراً ـــ رفع رأس بلاده فى أكبر عواصم العالم الحديث .

حيا الله تلك العظام الرميمة ، فهى لم تسترح إلا فى القبر .
أحب ذلك الوادى ـــ وادى الفريكة ـــ صغيراً ، فنام على كتفه فى (الشاوية) نومة الأبد .

طاب نومك يا صديقى .

فى الريحانيات

ـ ١ ـ

نكاد نجد فى كتاب (الريحانيات) ـــ وهو بضعة مجلدات ـــ شخصية أمين كاملة فلا يفوتنا خط من خطوطها الأصيلة ، ولذلك قال لنا : « إن اعتقادى كامن بل ظاهر فى سطور هذا الكتاب وأضعافها ، فعل القارئ أن يعمل الفكرة قليلا » .

لقد عملت بنصحه ، وشكرته لأنه كفانى مؤونة عناء التفتيش عن عناصر شخصيته ، وإن كنت لا أكتفى بهذا ، بل سوف ألحق به فى كل مكان فلا أدع مخرماً طلع به . أما الآن فنحن هنا ، ولهذا أقول : كان فيلسوف الفريكة من رجال السمت وإن لم يكن كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته كالقاضى أبى يوسف . فالذى يسميه غيرى إلحاداً وكفراً وزندقة أسميه أنا « تبدّلا » . فليس أمين من المعطلة ولكنه مؤمن حر ترك بنيّات

الطريق ليسير فى الجادة . وما اتجاهه إلى الطبيعة وجعله منها هيكلا له إلا ضرب من أكليريكية أخرى ، وإن عده الناس مارقاً . هذا ما يسميه علماء النفس استعادة رغبات الطفولة . فأمين فى أحلام يقظته يحقق فكرة لم تتحقق ، فقد تكون (لقنته) أمه ، صغيراً ، أن ستراه يوماً خادماً لمذبح كنيسة مار مارون ، جارة بيتهم .

ما كتب أمين مقال (أبرشية الفريكة) إلا مدفوعاً بالانفعالات الباطنية التى يخضع لها من حيث لا يدرى حتى فى تمرده . ففى عروق أمين شىء من دم خدام المذبح ، فجد جده كان مطراناً يدعى باسيليوس ، كما خبرنا الأستاذ جرجى نقولا باز ، الأخصائى فى تراجم الأدباء اليوم ، ونصير المرأة سابقاً . . . فمن صلب ذلك المطران الجليل تمشى أمين فى ظهور الأجداد حتى وصل إلينا ، فتكررت « الرغوة » وأصبحت هذه « الصفوة » كما عبر الكاهن الجليل الأستاذ نعيمه — أحد الأبدال الأربعين المستقرين فى لبنان — حين ابتهل مع أمين من أجله ، وأجل نفسه ، وأجل هذا العالم المنكوب برغوته . . .

لم تكن «المحالفة الثلاثية» إلا مجمع أبرشية فيلسوف الفريكة ، عليه اعتمد أسقفها العظيم فى تدبيرها وإدارتها روحياً — لا تنس أنها أبرشية بلا رعية — أما (الريحانيات) فهى مواعظ هذا الحبر

اللاطقسى لايحيد فيها قيد شعرة عما رسمه فى مجمعه الأول . وقد أعلن ذلك ، أو جدد نذره ، بعد ثلاثين عاماً ، حين طبعت ثانية قصة « المكارى والكاهن » فقرر متابعة هذه الحرب العوان التى قامت طول الحياة بدون هدنة تذكر ،

ثم دامت إلى أن أذن الله لهذا الجندى بالإجازة الأخيرة ، وقد أجيز كما علمنا فى ١٣ أيلول عام ١٩٤٠

لا بدع إن ظل صاحبنا يناضل فى هذا الجلاد ، فهو يرى الثبات من الفضائل العظمى كما قال حين مات زعيم المذهب الداروينى فى الشرق : « مات شبلى الشميل ثابتاً لاشك فى اعتقاده ، أو عدم اعتقاده ، وأمره فى الآخرة لربه » .

نشأ الريحانى على كتف ذلك الوادى بين ذراعى والدة صالحة حصان ، اتقد قلبها إيماناً فشع فضائل دينية لا تعرف الحدود ، وبعد امتلاء رئتيه من هواء ذلك البيت العامر بوصايا الله العشر ووصايا الكنيسة السبع تنشق هواء أنتى تحت الزيتونة عند خورى الضيعة . ولعله الخورى يوسف يواكيم الذى تخيله أمين فى قصته « المكارى والكاهن » ، فهداه الصراط المستقيم مكافأة عن جميله ، فمات المسكين فى مغارة قزحيا ، حيث منح الشهادة الفلسفية الكبرى ممهورة بطابع ذلك المعهد ، مداس أبى القاسم الطنبورى .

أما حب الطبيعة الذى تعج به الريحانيات فغرسه فيه ذلك المحيط الواسع الطليق حيث قضى اثنى عشر عاماً تناجيه الطيور الفصيحة من الحسون وغيره فتنسيه غطرسة معلمه القسيس . ركب الولد رأسه فهام بين أشداق الصخور المتبسمة عن الزهور البهية الذكية ، فرأى فى حضن الطبيعة جمالا دونه وجه معلمه الكالح . وقد يكون هذا هو الذى دس فى نفسه تلك البغضة للطقوس التى بشم منها صغيراً ، فثار عليها كبيراً ، ورب أكلة حرمت أكلات .

إن ما لمحته فى الريحانيات يؤكد لى هذا ، .فحافظة أمين محشوة عبارات طقسية تراكمت فيها حين كان العلم كالنقش فى الحجر ، ولكن حجر أمين كان رخواً . . . فامحت المعانى وبقيت الألفاظ رغماً من التكرار الذى يزعم غوستاف ليبون أنه يصير الصدق كذباً . أما أنا فأرى أن الريحانى ، وإن حمل على الطقوس حملاته العنيفة، فهو يعمل مثلها إنما بصورة أخرى، أى أنه يمثل الرواية عينها ولكن على مرسح فى الهواء الطلق ، وهذا صحى أكثر . . .

يخبر أمين .أن فى عروقه شيئاً من دم العرب ويعترف بعرقه الفينيقى بخطبة فى صيدا . ثم يرى في كتابه ملوك العرب أنه عربى أميركى إنكليزى فى شخصية لبنانية . وكل هذا التنوع ، بل

كل الذى صادفه من إعظام وإجلال فى عواصم الدنيا لم ينسه الفريكة ولبنان .

أما كيف ضيع الفيلسوف إيمانه وشك منذ حداثته ، فإليك ما يقول فى ذلك : « وأذكر أنى صليت مرة فى نوبة غضب وحسد ، فدعوت بالموت على ولد سبقنى إلى نقطة مستحبة تظللها صخرة ، وقد نبت فيها طيب البنفسج الغزير . وما هو إلا أسبوع حتى انتشر الجدرى فذهب بحياة ذلك الولد رفيقى فى اللعب . فنقمت على القديس لأنه استجاب طلبتى . وآليت على نفسى ألا أصلى له بعد ذلك وألا أجمع الأزهار باسمه . لأنه إذا كان قد سمع صلاتى ، فما أحراه أن يسمع منى أيضاً صوت الندامة » .

أفلا يستوجب ما رواه لنا الأمين أن نعده فى الأبرار والصديقين ونذكره فى الطوباويين ولا سيما بعد أن بكر فى اجتراح العجائب . . . فقتل بمعونة قديسه وشفاعته طفلا بزهرة ! !
ليتك تماديت يا عزيزى فى صلواتك الحارة المقبولة لتمحو بها العالم بعناية قديسك السميع المجيب . . . إن فيك يا أخى شرارة متقدة ، إذا ما أخمدت قلبها اشتعلت أطرافها وهى التى قولتك : « أسفى على امرئ يدب حول جذور الدين فى قيود من الإيمان صدأى » . دنت بالحب العام فرأيت ناره طاهرة مطهرة ،

وسمعت ، وحدك ، جوزة أفقا تناديك « وإن رقاع الإيمان مثل فلس الأرملة » ولكنك أنفت من هذه الرقاع فقلت : « وإن كان ثوبى مرقعاً ، أو عقيدتى مرقعة ، فلا بد أن تأتى ساعة أنسى فيها نفسى فيزول انتباهى ، فتبدو ذلّتى » .

وقد تقول أيها القارئ ، بعد كل هذا : وما اعتقاد أمين ؟ فأجيبك : أن اعتقاده كمعتقد أكثر الناس ، والخلاف قائم بينه وبين مكفريه على الدرب لا على الطاحون ، الفرق بينه وبين مكفريه أنه يرد الأمانة عيناً ، ديناراً بطغرائه ونقشه ، والصيارف يريدونه « فرطاً » ليعلق بالكيس منه شيء وإلا فما الفائدة . . . يريد أمين أن يتصل بالمعمل تواً ، أما أولئك فيأبون أن يكون شيء له من هذا بدون واسطتهم .

يقول لنا أمين : «وأما دين أجدادى فقد كان فى جيب قبائى يوم ركبت البحر مرتحلا ، ولكنه يقول أيضاً: السير فى شوارع المدن الكبرى يذكر الإنسان بالإنسان ، وأما السير فى الوادى أو الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم » . أما خلود النفس فيقول فيه : « نعم أنا على يقين أن الفكر لا يموت والنفس لا تفنى » . وفى أثناء كلامه عن الشميل أيضاً يصرح : « ولا ريب عندى أنه سيكون من المقربين إذا آمنا بما أنزل فى الكتب المقدسة . بل إنى على يقين أنه أسعد حالا اليوم — ولا عدمية

لمن كان مصباح هدى فى الناس — مما كان بالأمس » . أليس لمثل هذا القول استحق أرسطو الوثنى لقب المعلم الإلهى ؟

أما صلاة أمين المؤمن فطويلة و إليك شذرة منها : «أبانا الذى فى السماوات كن معى فى الحياة وفى الممات ، وإذا زدتنى قوة فزدنى يا رب تواضعاً ، ولا تمت فى فضيلة إلا لتحيي فى أخرى . أنت منحتنى عقلا لأفكر ، فإذا فكرت قليلا فلا تلمنى — إن وكلاءه الجبريون يلومون — خذنى بحلمك الواسع يا رب ، وإذا طلبت منك الرحمة لعبادك فى أرضك فاستجب يارب طلبتى » .

وله صلاة أرفع من هذه كان يصليها فى الصحراء وقد جاء فيها : « إنك إلهى ولا إله لى الآن . وقد أجابه إلهه كما يقول : «أنى نبض الحياة فيك ، وروح الحب فيك ، ونور الحكمة فيك . كن عليها أميناً فهى الألوهية ديناً ويقيناً) .

فالريحانى إذن مؤمن كبير حتى فى ليالى شكه المدلهمة ، لأنه لم يجحد المحرك الأول قط فقال فى شعره المنثور يخاطب أخاه الإنسان : «فى وفيك سر أبدى عظيم ، لايكشف الحديث من العلم عن غامضه ولا القديم . الجرذان فى قبوك لا يعرفون إذا كان القبو ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين . لا يعرفون من شيده ولماذا ، إنما هم يعيشون فى زاوية منه ، فيضاعفون نسلهم ويضاعفون بذلك عذابك » .

وأما الشياطين ، وهي عقيدة جوهرية جدًّا ، فيقول فيهم أمين : « ليس هنالك شياطين غير بشرية ، وعالم الجن هو عالم الوهم والخيال » . وأخيراً يلخص أمين دينه بهذه الكلمة الواضحة : « لا دين لي اسماً ورسماً ، ولكني أعتقد بالله أبينا أجمعين وأعتقد كذلك بالإخاء البشري » .

فما تقدم يتضح لنا أن الريحاني هو عدو التقاليد لا عدو الله والبشر ، كما يحاول أن يقنعنا نفر من الناس . أن اعتقادي الراسخ بالله هو من تلك التركة التي أورثته إياها الأم ، وهذا الميراث لا يزول منا حتى تزول ذواتنا .

يقول علماء النفس : إن الإنسان يتفلت من قيود الدين في دور المراهقة . وحسب تحقيق الأستاذ باز كان أمين في هذا الطور حين ترك دين أجداده على المرفأ في جيب قبائه كما صرح لنا . . . فشكراً لأمه الصالحة التي لقنته تلقيناً لا إكراه فيه ولا رعب ، حب الله والإيمان به . فليتعظ المربون وليعلموا أن الدين لا يعلم بالعصا . وكيفما كان شأن الريحاني فهو ذو عقيدة ثابتة وليس كالذي نظم في رباعياته خطرات أفكار الفلاسفة شعراً . إن للريحاني معتقداً ما حاد عنه قط ، وقد لخصه الشاعر العربي بقوله :

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم . وما عليك إذا أذنبت من باس

إلا اثنتين فلا تقربهما أبــداً   الشرك بالله والإضرار بالناس

أما ما يعتقده أمين فى قصيدته المنثورة « ربة الوادى » ، وخصوصاً فى النشيد الخالد الذى نظمه فى رثاء ابن أخته الطفل فأشهد أنى عجزت عن فهمهما . تراءى لى أمين فى القصيدة الأولى أنه أقدم من الهيولى ، ولعله من لدات الله ورفقائه فى المدرسة . . . . وقد كانا يتنزهان معاً على وجه الغمر حين كانت الأرض خراباً يباباً . إنه وجد منذ الأزل وسيكون بعد الأبد . ولعلها شطحة صوفية مرت فى سماء حياته مرور النيزك فى ليالى الصيف .

وأما قصيدته فى ابن أخته ففيها من هذه الطلاسم والعقد المنفوثة ، ولكنها تفهم بعد إعنات الروية ، لقد تكلم فيه وجدان شاعر كبير أبرز لنا كلامه فى ثوب بهيج منمنم ، وهكذا صار ذاك الطفل خالداً بلا جد ولا كد :

فديوان ربك هــذا الوجــود   وفيه السخيف وفيه البديع

وأنت ابن أختى بيت القصيد   وخالك شاعر رب الربيــع

صدقت يا أمين ، فما قصرت أبداً عن جون روسكين ، فأنت شيخ مشايخ شعراء الطبيعة عندنا ، لقد خلدت وخلدت كما خلد شكسبير (صاحبه) المجهول .

فمن هذه النوافذ التى رأيت خلص أمين إلى مقاومة التعصب

الذى رآه شر الآفات فى أمة تشعبت أديانها وتفرقت . كان لا بد من حملاته المعهودة على الفئة التى هى ملح الأرض ، فكانت الحرب بينهما سجالا . فكل ما كتبه فى الريحانيات تفوح منه هذه الرائحة ، تارة بالتهديد والتقريع ، وطوراً بالسخر والهزء ، وأحياناً بالتهكم ، وآونة بالتصريح والغمز . مساكين (أباؤنا) رجال الدين فهم لا يكرهون جميعاً ، ولكن القضية عند أمين قضية حرب وجهاد ، فهو لا يستثنى من المعسكر أحداً : إنها الحرب.

تذكر أنى قلت لك إن الريحانى من كتاب المعارك ، وأسد كلام عرينه المنبر ، يهاجم منه خصومه فيبغتهم ، ثم يدعهم وشأنهم كالمصعوقين ، وفى كل مقام له مقال يثار حوله الجدال . اسمع ما جاء به أمه — وأمه أمته — عند عودته أخيراً إلى « أبرشية الفريكة » :

« قالت الأم — وما الذى جئتنى به بعد هجر طويل من البلدان التى سحت فيها ؟ .

— جئتك بسكينة الدهناء والنفود ، تلك التى تملأ النفس ورعاً وخشوعاً ، فتزول منها الهواجس كلها والهموم .

— لا تنفعنى يا بنى ، لا تنفعنى .

— جئتك بقناعة البدوى ومروءته ، بشجاعة البدوى وحريته ، باستقلال البدوى واطمئنانه .

— لا تنفعنى يا بنى ، لا تنفعنى . .

— جئتك بالشمم العربى والإباء ، ببساطة العيش وكرم الأخلاق ، بالجرأة والبطولة فى الشدة والرخاء .

— لا تنفعنى يا بنى ، لا تنفعنى .

— جئتك يا أمى ، بفكرة سامية من المدينة الأوربية — العمل الصالح أصح الأديان — وجئتك كذلك بحرية الفرنسى فى ثورته ، ونشاط الأميركى فى عمله ، وبإيمان الأحرار أجمعين بالحياة والناس .

لا تنفعنى يا بنى لا تنفعنى .

— وماذا تبغين يا أماه ، يا روح الأمة التاعسة الحزينة ، ماذا تبغين ؟

— رءوس الإله الذى رأته عيناك — إله التفرقة والتعصب والشقاق ، لا أبتغى اليوم سواها » .

— ٢ —

وبعد تلك الجولات والحملات ينغمس أمين فى المعركة حتى يستولى على الأمد . كان قصاراه أن يتساهل رجال الدين مع معادليهم فى المذاهب ، ثم سولت له النفس أكثر من ذلك .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضـاع وإن تفطمـه ينفطم

هكذا قال شاعر البردة ، وهكذا نرى الريحانى ، فتطور واتجه صوب العمل المجدى فصاح بلسان الشرق ، فى مصر ، يوم أقيمت له حفلة تكريم فى سفح الأهرام :

« أنا الشرق ،
عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات .
أتحسبها سفاهة منى ، أو تظنها تجديفاً .
قد يكون ذلك قد يكون .
وهناك سر أهمسه فى أذنك يا فتى الغرب .
ليست الأديان والفلسفات ما تظنها .
وليست ما تظن أنى أظنها .
فلا للحراثة هى ، ولا للتجارة ، ولا للسياسة ، ولا للتقشف .
إنما الأديان والفلسفات كمصافى الماء .
هى مصافى الحياة ، تصفيها فى الأقل من بعض الحشرات والجراثيم . »

فأثار هذا الكلام معركة نقد حامية الوطيس ، فقال فى ذلك أمين : « والعجيب الغريب أن ذكاء بعض الأدباء والشعراء كبا كبوة عند هذه الكلمة التمثيلية ، فاستعاذ بالله من طمطمانيات الشعر المنثور ، واعتصم منها بشىء من الأدب القديم العقيم ، وبأشياء من السخافات فى النقد والمبتذلات » .

ولم تكن هذه المعركة بدون تطور سابق ، فقد سبقتها هذه الكلمة فى صيدا : « الكتب المقدسة تصلح الحياة ولكنها لا تعمر البلاد ، والعلوم المادية تعمر البلاد ولكنها لا تصلح الحياة . إذن كتبكم المقدسة احفظوها ، وكتب العلم عززوها » ٧٦-٢.

إن الريحانى من المؤمنين حتى اليقين بعجائب التطعيم ، ولهذا قال يخاطب تمثال الحرية النيويركى :

«متى تحولين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية » . وبعد نجوى قصيرة خاطب البواخر من على جسر بروكلين صائحاً بها : «خذى، خذى معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشى منها سواحل مصر وسوريا وفلسطين وأرمينيا والأناضول ، احملى إلى الشرق شيئاً من نشاط الغرب ، وعودى إلى الغرب بشىء من تقاعد الشرق . احملى إلى الهند بالة من حكمة الأميركان العملية ، وعودى إلى نيويرك ببضعة أكياس من بذور الفلسفة الهندية ، اقذفى على مصر وسوريا بفيض من ثمار العلوم الهندسية ، واقفلى إلى هذه البلاد بفيض من المكارم العربية .

أيتها البواخر الآيبة حيي عن جسر بروكلين خرائب تدمر وقلعة بعلبك ، واقرئى أهرام مصر سلام هذه المعالم الشاهقة المشعشعة بالكهرباء . سيرى أيتها السفن بسلام وارجعى بسلام ».

ألا تهب عليك من بين هذه السطور نفحة من نفحات أنبياء التوراة ، المبشرين بالويل والثبور . . . . . . ولو قرأت الريحانى بحذافيره لرأيت خيرات كثيرة ، إنه فى مكان آخر يصيح بأم ناطحات السحاب ، ويسمى بناتها دمامل الأرض ، وأخيراً يهتف بمدينة الدولار: «يا نويركايم يانويركايم .ليذكرنا بصرخة السيد المسيح ، يا أورشليم يا أورشليم » . . .

والغريب من أمر هذا الرجل أنه صريح قاس يشتم سامعيه ولا يبالى كأنه نبى له سلطان ، فهو يريدهم أمة تجمع بين فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين ، يريد لقومه حياة تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل ، وقوة الروح ، فينادى بالمذهب النيتشى الذى توكأ على عصاه الأستاذ الرياشى فى درس نفسية الرسول الكريم . قال أمين : « وقد يأتى يوم يشاهد فيه أبناء الأرض رجل المستقبل العظيم ، وقد ترقت فيه القوى الحيوية كلها ، أى القوى الحيوانية والبشرية والإلهية ، إلى منتهى الدرجات ، فالإنسان مركب من هذه القوى كلها وهى كامنة فيه إلى الأبد . نعم إنى ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة إلى أن يؤيد العلماء اعتقادى ، فإنى لمؤيده بما أعرفه وبما أجهله من لوح هذا الوجود » .

ولصاحبنا تنبؤات سياسية صريحة نجدها فى الصفحة

١١٥ وما يليها من الجزء الثانى من ريحانياته وهى تدل على بعد نظر الرجل وشدة إيمانه برسالته القومية التى عاش لها ومات عليهـــا .

لست أدرى كيف أطبق بين قوله : « أحب أن تشع حياتى ولا أحبها أن تفرقع . أحب أن تكون كأحد الكواكب السماوية كسهم من الأسهم النارية » وبين قولى إنه من كتاب المعارك . فما قولك ، هديت وإياك ، فى هذا الحل الوسط وهو أن صاحبنا يفرقع ليدوم إشعاعه ، ولهذا آثر أن يكون كلامه « كلام شاعر مفتون لا كلام متصوف مغبون » .

أحب الريحانى الطبيعة فى لبنان عامة وفى أدبه خاصة حبًّا فائقاً ، ولكنه لا يدين بوحدة الوجود ليؤلهها ويندغم فيها إدماغاً لا ينفك . إن داء أمين لقديم ، هذا الداء الذى لا يزيله الاستهواء والإيحاء ، بل هو يشتد حنيناً إلى قوة ضاعت منه فى وداى الفريكة ، فيتبدل أسفه على الشباب الضائع حبًّا غريباً لتلك الصخور العابسة ، فيراها أجمل من الأولمب وأبدع من الأكروبول. ها هو فى مقاله « غصن ورد » يزرع حبه فى سهول الحرية ، فى أنجاد العلم ، على شط نهر الفلسفة ، فى غياض الحضارة وفى حقول التجارة ، فيذوى ويذبل وييبس ، حتى إذا ما زرعه فى الأرض التى نقبها فارس الريحانى أبوه ، وصلت تحت

أشجارها أمه ، على كتف هذا الوادى الذى ردد صراخه صغيراً ، غرسه هناك فنبت ونطق أيضاً . . .

لقد صدق علماء النفس ، فإذا كانت نزهة واحدة جميلة ، كما قالوا ، تجذب الطفل إلى الأبد ، فكيف بمن ينشأ نشأة أمين الجبلية اللبنانية . ولهذا يرى أمين فى العراء هيكلا يوحى ما لا توحيه جميع مبانى الناس « إن فى ورقة من أوراق التوت سرًّا لا يكشفه اللاهوت . إلى الوادى إذاً . هناك بين أشجار البطم والزمزريق وتحت أدواح الصنوبر والسنديان أشيد هيكل الإيمان . أرانى هناك فى بيتى ، فى بيت الطبيعة ، بل فى بيت الله .

فى ظل القويسة والغار ، وبين الصعتر والوزّال الخنشار ، وبالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء ، وفوق النهر الجارى تحت قدمى هذا الوادى الرهيب ، ابنى لك أيتها النفس هيكلا من الإيمان . يؤمه فى المستقبل البعيد من إخوانى والقريب .

بل أقيم فيه تمثالا للوداد والإخاء . وأدعو إليه كل بشر تحت السماء » .

ومع هذه الدعوة إلى الطبيعة ، إلى دين السذاجة والبساطة فهو يترجى القيامة كالمؤمنين الرسميين تماماً ، وفى هذا يقول

مفتتحاً قصيدة من شعره المنثور كتبها تذكاراً لراحيل دريان :

« على أبواب الجنة تنتظر الأرواح أحبابها ،
بل تنتظر الأحباب أرواحها .
آه على المحبين ، المودعين والراحلين »

وأمين يعلم حقاً أننا مهما تطهرنا من الماضى البعيد ، ومهما تعالينا بهمنا عن الناس ، يظل لنا زملاء وأنداد بين السواد من الناس ، فمن رعيان البقر والمعزى من يفهم ما نفهم ، ويزعم ما نزعم ، ولكنه لم يؤت منحة الأنبياء ، فصاحة اللسان وسحر البيان : «إن فى قلبى ، اليوم ، شيئاً من قلب جارى ، وفى قلب الغاب أثراً من أثارى . إلا أن قلبى فى عقل هذا القروى . وعقله فى قلبى الخفى . والذى يراه هو تحت الكلاء أراه أنا فى السماء » .

اليوم وكل يوم يا صديقى ، فمهما انتفضت وتنصلت فصبغة أملك لن تفارقك جميعها ، ولهذا رأيت (المسيح خير من تألم فى الحياة ، وجثت الكنيسة — بعد القطيعة — لتردد مع الناس ذكر أمير الناس) وفى إحدى غفلات عقله اليقظ يسأل الريحانى المسيح قائلا :

«سيدى ، دعنى ألقى على كتفك رأسى ، فيذوب تلج فتورى ويأسى »

ألا ترى مثلى أنه يريد أن يكون يوحنا ثانياً ، ففيه حيرة

لا يكاد يعتق نفسه من عبوديتها حتى يجده فى أغلالها ، فهو كمن تسوقه عاطفته إلى حيث لا يريد ، ويتم كلامه عما فى نفسه الخفية ، وهو يظن أنه ألقاها عنه كصحيفة المتلمس ، وإليك الختام :

« وبينما أنا أكلمه — الضمير يعود إلى المسيح — فى البستان أطل البدر من شرفة لبنان ، فتركنى ذو الجلال مكانى كالخيال ، وذاب فى القمر فوق الجبال » .

فما تقول فى (ذو الجلال) أليست من فلتات العقل الباطن. إذا كان الله يطلب كما علم السيد المسيح : يا بنى اعطنى قلبك ، فصاحبنا أمين طوباى من طغمة الأبرار والصديقين ، فالعقل الخفى كالكنيسة البطرسية التى لا تغش ولا تغش . . .

إن فيلسوف الفريكة لا يجحد شيئاً ، فمن آمن بالله واعتقد أن للجنة أبواباً تدخل منها الأرواح وتنتظر أصحابها عند أبوابها لهو مؤمن كبير يستحق التعظيم والتبجيل . وإذا كان الريحانى قد حارب طقوساً فهو قد دعا إلى طقوس ، إنه لا يريد الإنسان هملا ، يريد كالمسيح هيكلا لا بيع فيه ولا شراء . يريد أن يكون رواقياً من المشاة ، لا أكاديمياً على المقاعد الثابتة . . . يريد أن يحيى العبادة فى برية جنشار ، وعلى بحيرة طبريا ، وفى ضواحى المجدل .. وهذا يثبت لنا أن صاحبنا يحاول أن يفلت

فيقبض عليه عقله الباطن ، وتنتصر الملكات والعادات المغروزة في أعصابه .

قال غوستاف له بون: « لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجاً أبدياً . إن حب الاطلاع على الأسرار والاحتياج إلى التدين ، وأمل الحياة بعد موت ، مشاعر قوية لا تموت أبداً . »

أما صاحبه جبران — والريحانى سابق — فقد تنصل من الطقوس كافة فى (نبيه) فلم يوص بالصلاة ولا العبادات لا فى الوادى ولا على الجبل ، لم يتخذ له كاهناً لا الحسون ولا الدورى... وكلا الرجلين العبقريين خطب بنت المسيح الصغرى التى اسمها محبة . ومن آمن بالمحبة دان بدين البشرية الأسمى . ومن هنا انحرف أمين إلى الاجتماعيات فنادى الشرقيين جميعاً : فليحب بعضكم بعضاً ، اتحدوا .

وأمين ، حتى فى اجتماعياته ، عاطفى المنطق كرجال الدين يخاطب الوجدان لا العقل ، فكأنه يعلم أن الجمهور يفكر بقلبه ، وهكذا كان يستولى على الجماعات ويقنعهم إلى حين فى غفلة من الملكات والعادات والتقاليد ، حتى إذا تحول عن تخومهم لحقت به تعاليمه تلك إلى أبرشية الفريكة . . .

* * *

لست أزعم أنني أحطتك علماً بالريحاني ، ففي ريحانياته خير كثير . إنها كما قلنا سابقاً ، أشبه بحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها القديم ومنها الحديث ، من زمن اليونان والرومان إلى عهد الإنكليز والأميركان . . . أذيق طعم الأبعاد فتألم ، ولولا العجوز بمنبج ما خاف أبو فراس أسباب المنية . . . إن محبة أم أمين فرضت عليه الهدنة فسكت حيناً ، وهو الرجل الضرب الذي عرفناه في معلقة طرفة ، ولسانه أمضى من سيفه الذي إذا قيل مهلا قال حاجزه قد .

أما الأسلوب ، فأسلوب أبي الشعر المنثور له ، ولا يد لغيره فيه ، وبه غزا العالم العربي فترة من الزمن ، فكان في كل قطر حلت ركابه كالمنارة فتتجه إليه أبصار الشعب وملوكه ورؤسائه .

إن أسلوب الريحانيات يفيض شاعرية وإن شابته ، أحياناً ، ألفاظ مرصوفة مرصوصة . وجمل قد تموت عند سماعها من الضحك ، وتؤمن لأجلها بالبعث ، إذ تراك تسمع لغة شق أنمار وسطيح .

في الريحانيات لونان من الأدب : لون ، وهو السواد الأعظم ، يغلب عليه الويل والثبور ، لون يكتسي صبغة نبوية . ولون

آخر فيه من سحر هاروت وماروت شيء كثير ، وهو الناحية الشعرية من أدبه .

فى اللون الأول يلبس أمين فرو عاموس ، وفى اللون الثانى عليه طيلسان مطرز موشي بالأزاهر التى لم يلبس سليمان يوم عرسه كواحدة منها .

إن الريحانى ذو خيال واسع ونفس يتنازعها المرح والتزمت . سخر كلذع الزنابير ، وهزء كلسع العقارب . أما التهكم الذى ترتاح إليه نفسك فلا تجده فى « الريحانيات» أنه فى « رحلات » أمين تلك الكتب الفريدة فى أدبنا ، والتى بينها وبين كشف المخبأ ، والواسطة فى معرفة أحوال مالطة أقرب النسب . الريحانى فى هذه الرحلات واحد دهره بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فهو فى رحلاته التى سأحدثك عنها قصاص ومحدث لبق أوتى من قوة الإبداع البيانى شيئاً كثيراً .

أما « اللحن » فى إنشائه ففاش فى « ريحانياته » وقد قل فى كتبه الأخرى ، وندر وقوعه فى رحلاته. الريحانى فى كتبه الأولى يقول لقدر القوم قدغليت ، ولباب الدار مغلوق ، وحدّ أبى الأسود جهنم . . . قد يجر المثنى بالألف ويرفع الحال ، ويخفض التمييز ، ويصوغ المضارع على هواه ، ثم لا يضن بالتنادر على شيوخ النحو واللغة ، ويتهكم بهم وبأنصارهم تهكماً مراً . . .

فلو كان صديقنا أمين فى عهد عبد الملك بن مروان الذى قال لخالد بن يزيد : أفى عبد الله تكلمنى ، وقد دخل على فما أقام لسانه لحناً ، لما دخل عليه كما دخل على الحسين وابن سعود ، وفيصل وغيرهم من أصحاب الجلالة .

إن الريحانى معذور فحسبه ما حصل . فهو أستاذ نفسه كما نعلم. إن كتبه لاتحتاج إلى تصحيح عنيف فأخطاؤه نحوية صرفية ليس غير . وجل من لا عيب فيه — كما يقولون .

أمين الناقد

إن النقد هو أبرز سجايا أمين الريحانى، فهو ناقد اجتماعى فى خطبه ومقالاته ، فى كتب رحلاته وفى رواياته ، وقلما خطت تلك اليد المتمردة حرفاً يخلو من نقد ، وقلما تحدث إلى الناس ولم يكن للنقد المكان الأول فى حديثه . وهو أيضاً ناقد فنى للرسم والتصوير ، فإذا شئت معرفة قدرته عليه فاقرأ تلك الفصول التى عقدها حول الفن الإسبانى فى كتابه « المغرب الأقصى » .

أما النقد الأدبى فقد كتب فيه فصولا طريفة فى كتابيه : «ملوك العرب وقلب العراق» . كان الكتاب يبعثون إليه بما ينشرون من كتب فيبدى رأيه فيها . ولما تكاثرت الظباء على خراش طبع

أمين رسالة كان يملأ ما فيها من فراغ باسم المؤلف واسم كتابه ، ثم يوجه تلك الرسالة — الكليشه — إلى أصحاب الكتب التى لا تستحق الاهتمام . أما الكتب التى يؤبه لها فكان يكتب إلى أصحابها مناقشاً منتقداً ، وهو فى كل هذا ساخر ماكر . . . لم يقع فى يدى شىء من تلك الرسائل لأنقل إليك أيها القارئ العزيز شيئاً منها ، ولهذا أثرت أن أنقل بعض نماذج من نقده لشعراء العراق ، وفى هذا النقد يتناول الريحانى شخصية من ينتقد بتصوير كاريكاتيرى . قال فى أحدهم .

« هو فى السبعين من سنه الزمنى ، وفى العشرين من سنه الشعرى . وهو فى المصائب أبوها وخالها . على أن السنين والعرج والدرد لا تفل من عزيمته ، ولا تؤثر على نشاطه ، ولا تجرؤ أن تدنو من صوته وقلبه وروحه . فإذا كان لا يستطيع أن يقف كالرمح فإن فى نبراته رماحاً ، وفى نظراته شراراً . يحسن المجون فيضحك حتى الجائع فى جنازة ، ويسترسل فى الشجون فيبكى حتى إبليس . له لهجة الأنبياء وما يصحبها من آيات ، ومن آفات . . . وله فى التجديف لفظ شريف ، وفى التهكم كلمات تبكم . فهو يفتل ألحاد الخيام بشكوك المعرى ليصنع منها سوطاً لشيطانه ومطية لبيانه .

إن للزهاوى آثاراً شعرية نفيسة ، وأنفسها فى نظرى وأحقها

يطول البقاء قصيدته أو ملحمته (ثورة فى الجحيم) . فكأنه ، وإن اقتفى فيها أثر شاعرين عربى وغربى ، دانته والمعرى ، ليقف فى التقليد عند الفكرة الأصلية الأولى ، فهو يختلف عن المعرى فى رسالة الغفران وعن دانته فى الكوماديا الإلهية فيطرق الموضوع من باب جديد ، وقد جاءه — أى الموضوع — كمسلم مشكك فى إيمانه ، وجاء فيه باللطائف والطرائف الفكرية والخيالية . »

وبعد أن لخص أمين موضوع « ثورة فى الجحيم » ووصف جبن الشاعر أمام الملكين منكر ونكير قال ناقداً : « فلا عجب إذا جبن وارتاع وفقد حتى لغة الشعر فنطق بالنثر المنظوم . . . » ثم دل على ألفاظ النثر المنظوم وعد منها — لسوء حظى — و (فيه بثور) قائلا : « إنها من مألوف النثر بل من الحشو أيضاً . أما الوصف فلم ير فى وصف الزهاوى للجحيم شيئاً جديداً ». بل جاء « وصفه للجحيم والنعيم وصفاً تقليدياً ، صوره دكناء واستعاراته بائخة » .

وقال فى الشيخ رضا الشبيبي : « ومع ذلك فهو لا يزال فى قيود اختارها لنفسه ، هى قيود التقاليد أو بعضها فى الشعر والدين. فإن كان قد نفض غبار النجف عن جبته ، وعنكبوت النجف عن عمته ، فهو لا ينبذ ، — ولا أظنه يستطيع أن ينبذ — من عقله

ومن قلبه ما ورثه الشيعي العربي من الأجداد ، أى الإرث الشعرى الأدبي الديني . وهذا ما يميزه عن الشعراء الآخرين . فقد يكون أفق شعره دون آفاقهم اتساعاً ، وقد يكون خياله مثل صناعته الشعرية من المقلد المألوف ، ولكنه شديد الحس ، صادق اللهجة ، نقى الفكر ، نقى العبارة ، مع شيء فيهما من التجهم والقساوة ، شاعر تقليدى يحترم الماضى ، ويتورع للحاضر ، وينظر إلى المستقبل بعين الرضا والاطمئنان ، وقد يعد ، وهو ضمن دائرة محدودة وإن ضاقت ، من المتمردين .

فى مجموعة متسلسلة من الشعر أشبه بملحمة وجدانية تتجلى روح الشبيبي فى نضارتها ومتانتها ، وفى يقينها وحيرتها ، فهى تحلق فى سماء الخيال والحقيقة حول رواسيهما العالية ، فتثب من قنة إلى قنة ثم تعود سليمة آمنة إلى بستانها فى (الكرادة).

وأخيراً قال فى صاحبنا النجفى : «هو طير ولا كالأطيار ، له منقار البومة وصدر الورقاء ، وجانح الهدهد ، وذنب الطاووس وله فى الشدو هديل الحمام وصفير البلبل ، وعندلة العندليب ، هو طير غريب يدعى بين الناس بأحمد الصافى ، ويعرف بالشاعر المجدد والشاعر البائس .

ولد فى النجف الأشرف يوم كان الحسن الخلقى والصحة والنعمة تنثر كلها فى الكون الأعلى ، فما رمقته بنظرة ساعة

الولادة ، ولا دنت بعد ذلك من ملعبه ، أو من رحله ، أو من كوخه .

تنقل من كوخ إلى كوخ ، ومن بلد إلى بلد ، ومن مستشفى لا يشفى إلى مستشفى لا يرحم ، وهو فى كل أحواله مجهول غريب . كان يدعى عجمياً فى النجف ، وعربياً فى بلاد العجم ، أقام بين البدو فظنوه من الحضر ، وجاء سورية فظنه أهلها من البدو .

إنه لطير غريب عجيب ، يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما ، وهو كما ألمحت وليد برج النحوس . فالدماثة أمه ، والبؤس أبوه ، والسقم أخوه ، والفقر ابن عمه . أما الروح منه فسليمة قوية . »

وتذكر الريحانى بهذه المناسبة حملته على الشعر الباكى فقال :

« فإذا نحن حملنا على الشعر الباكى الذى ألفه شبان هذا الزمان ، فإننا نحمل على التعمد والتعمل والتخنث فى الشعر الباكى ، نحمل على دموع الزور وعلى دموع الخوف والجبانة ، وعلى دموع الشعراء السوداء ، المكونة من الحبر الممزوج بماء العواطف الآسن . أما دموع هذا الشاعر فهى مثل اسمه صافية ، ومثل نفسه صادقة . وهى من نفسه ومن قلبه ، لا من حبر شعره وتبره .

وبقى أن أقول كلمة واحدة فى آفة له شعرية تكاد تكون آفة الشعر العربى وخصوصاً فى هذا الزمان — أى الإسراف فى الخيال ، وفى الألفاظ ، وفى المعانى . فالصافى غير صاف فى عقلياته ، وما هو فيها بالمبتكر المجدد ، وكذلك قل فى قصائده الوطنية التى قلما تمتاز عن شعره من سواه . »

هذه فقرات من نقد أمين الأدبى أرجو أن تقدم للقارئ صورة عن هذا الكاتب الفذ الذى عالج مواضيع كثيرة فى أغراض مختلفة وكان فيها جميعاً بارز الشخصية .

الريحانى المجاهد

عاد الريحانى من أمريكا أول مرة ، ولا ثروة له إلا شهرة عاش مغبوطاً بها . عرفته آثاره العربية ببنى أمه ، وعرفه أبو العلاء بالأمريكان والإنكليز إذ ترجمه إلى لغة شكسبير . أضف إلى هذا شعره الإنكليزى الخاص وتآليفه التى خطها قلمه بلغة وطنه الثانى . فكان بيته فى الفريكة محجة للأدباء من غربيين وشرقيين يحجون إلى تلك الصومعة فيرون ناسكها الذى يهجرها إلى بيروت متى قرصه البرد ، وإلى نيويورك متى قلّ الزاد . . . يحمل إلى صحف لندن ونيويورك ما يكفيه أجرة مؤونة العيش حيناً فى الفريكة فيلسوفاً وناسكاً وشاعراً وأديباً ، وسياسياً وعالماً ، يراقب الدنيا عن كثب فيأخذ منها مادة المعرفة ليخرجها فى خلوته صورة طريفة مبرقشة ببيانه الناعم .

نصب الريحانى ميزانه فى الفريكة فوضع الصوفية فى كفة ، والعملية فى الأخرى . لا ينظم لحسون الوادى وشحروره قصيدة

حتى يعد قنبلة من ذوات الأطنان ليلقيها فى بيروت أو إحدى الأساكل ضارباً بها حشد آفاتنا وجوعها . كان معمله فى الفريكة يصدر إلى الصحف محصولات متنوعة بعضها روحانى يخدر وينوم ، وبعضها عملى يثير ويهيج . فبينا ترى الشاعر يسبح فى عالم الخيال فيطرب ويسكر ، إذا بك تراه يناضل فى دنيا الواقع . يهاجم حصون التقاليد المنيفة ليدخلها عنوة . وبينا تراه مائعاً فى صوفيته اللامتناهية ، حتى تحسبه أحد الأقطاب والأبدال ينادى ربة الوادى بأغانى وأهازيج كأنها اللغو والثرثرة ، إذ به فى المدينة يقف مؤنباً وموبخاً هذا المجتمع ليهديه النهج السوى المؤدى إلى الحياة المثلى ، ناشراً بين قومه ما يرى فيه تقويم اعوجاجهم . رآهم غرقى فى اللجج الروحية فأيقظهم ، ولكن بمنخس لاذع ، وسوط قارص واصفاً لهم « المدينة العظمى » التى يرى فيها الحياة المثلى اللائقة بأمته .

ثم يترك المنبر ليتحول عن المدينة عائداً إلى عزلته يفتش عن حكمة جديدة ويعد قذيفة أخرى تكون « غب الطلب » . . أما كفاه حياة فى الغربة بين شعب لا يعرف معنى السكينة والهدوء والراحة والجمال ، أما عاش طويلا « بين قوم يأكلون ماشين ، ويقرأون آكلين ، ويعدون النقود راكضين ، ويعبدون الأوثان نائمين قاعدين ؟ » .

فكما تتناوح الرياح فتهب صبا مرة ، وجنوبا تارة ، وشمالا أخرى ، هكذا ترى عواطف الريحاني في تفاعل مستمر ، ولكنها لا تتحول عن قطبها الذي ستراه . ما رفع علمه على قبة فلسفته برهة حتى قوض الخيام وآذن بالرحيل ، إلى بلاد الدولار . لم يخص أمريكا بحنين ولكنه كان يؤمها مكرهاً لا بطلا . يحمل إليها إنتاجه بلغتها فتمد له أسباب حياة مطمئنة تحت سماء الشرق التي فتنته صغيراً وشب هواه معها .

إن هذا الصوت الخفي لا يبرح يرن في أذن أمين . وهذه الدعوة السرية التي تنضج وتختمر في اللاشعور لا تفتأ تدعو الريحاني منذ سنة ١٩٠٨ ، وسيكون لها أعظم أثر في توجيهه . ففي صدر الريحاني تعتلج عاطفتان : ميل إلى الفلسفة والشعر ، واندفاع إلى العمل المنتج ؛ ولا بد من أن ينفصلا ويكون منهما الخير الكثير للأمة العربية .

يعتقد الريحاني أن لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة ، وفي كل نفس بشرية شيء من سماء البلاد التي نشأت فيها ومن أرضها . ففيها شيء من تبر وطنها وترابه ، ومن خير هوائها ومن شره ، من فتوره ومن نشاطه ، من هدوئه ومن هياجه . وهذه الأشياء التي فطن لها الفيلسوف قد تفاعلت جميعها فوجهته في المسلك الجديد من حيث لا يعلم .

إن رجلا كالريحانى يلتهم الكتب التهاماً ليعيش فى بيوت الفريكة المتواضعة كما يعيش فى ناطحات السحاب . فالرجل كان يحيا بعقله أكثر منه بعاطفته . فى صدره طموح يدفعه دائماً إلى المثل الأعلى فيعمل أبداً ولا يمل .

عاد إلى أمريكا وكانت الحرب العظمى الأولى فسد بوجهه باب العود . فعاد إلى جهاده الأول هناك وراح يدعو أبناء أمته بمحاضراته ومقالاته إلى التجند مع الحلفاء ليكونوا أصحاب حق فى استغلال بلادهم متى وضعت الحرب أوزارها . ثم لم يكتف ببث هذه الدعوة فى الولايات المتحدة بل تجاوزها إلى المكسيك فأخرجته حكومتها بناء على طلب حليفتها ألمانيا . ثم كانت الهدنة وإذا بشىء من أحلامه يتحقق هوذا قومه العرب الذين حن إلى صحرائهم وباديتهم أمسوا أحراراً : لهم الملك وبيدهم السلطان فتصور مجدهم الرفيع وعزهم المنيع فأخذ ستار الصوفية ينطوى أمام عينيه ، رويداً رويداً ، انطواء ستار المرسح ، ليظهر خلفه الأبطال الحقيقيون ، وإذا بأمين يهلل ويكبر ويصيح : حىّ على الفلاح .

وأعد نفسه لسفرته المترامية ، إلى زيارة ملوك العرب المستظلين فىء النبوة، المجاورين للبيت العتيق ، إنها أمنية طالما حلم بها وتاقت نفسه إليها وهيأه لها عقله الباطن من حيث لا يدرى .

فأمين من عشاق الحرية الكبرى بنت البادية وربيبة العرب الغر الميامين . وقد قال فى مقدمة كتابه « ملوك العرب » :

« فى نيتى أن أهجر حتى هذا الوادى ، فى نيتى رحلة إلى البادية ، إلى البلاد العربية ، على هجين يبعدنى عن كل مظلمة وعبودية » .

ولكن تلك الرحلة المباركة لم تكن من ذلك الوادى أخى البادية بل من مدينة نيويورك . أمريكا دعت الريحانى إلى النضال والجهاد ، والشرق دعاه إلى الصوفية ، فلبى داعى النضال وما هجر إلا قليلا من صوفيته . لقح تلك الصوفية بمصل العمل ، وكر إلى ساحة النضال يطبب الأذهان والعقول باسم العلم والروح.

كانت للريحانى رسالة إنسانية عامة يبشر بها فى وطنه قبل الحرب الكبرى ، وما تلك الرسالة غير مكافحة جراد التعصب الدينى الذى عاث وأفسد حقول الأذهان والقلوب ، ما وقف على منبر إلا ليعلم الحرية والإخاء ويحمل على التعصب وأعوانه الذين يفرقون بين الناس لإنماء ثروتهم ونفوذهم ، فهمهم أن يسعدوا على حساب غيرهم . رأى أمين نفسه غريباً فى وطنه الثانى وإن تأمرك ، فتنبهت فيه نعرة الجنسية وطار شرارها ، وظلت تتلظى فى أحشائه مع الأيام حتى رأيناه رحالة يضرب فى مجاهل المسكونة شرقاً وغرباً . ترك الناسك خيمته وجفنته وأبريقه ،

وصار كما قال الشاعر :

كأنمـــا هو فى حل ومرتحل   موكل بفضاء الله يذرعه

ولكنه لم يكن كذلك الشاعر المفتون ، بل كان رسولا اجتماعياً يؤدى أسمى الرسالات وأنبلها . يزور أقدس أرض شرفها الله بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله النبي الأمى الأمين ، صلى الله عليه وسلم .

ها هو ذا أمين فى جدة يتنسم عبير البيت العتيق عن بعد ، ويرى بعينه البقعة المشرّفة التى زحفت منها الموجة الكبرى تقاتل وتمدّن ، وتطهر باسم الله الواحد الأحد ، فحملت مشعل المدنية قروناً عديدة ، وأتمت الثقافة العالمية ، وحفظتها أمانة إلى الأجيال . زرعت فى حقل العمران كل بزرة طيبة ؛ فزها الدين وفاض العدل وأزهر الأدب والفن والعلم على يد أبنائها الصالحين . أولئك هم العرب الأحرار بالفطرة ، وما عشقوا متحضرين غير هذه العروس الجميلة التى خطب ودها الناس فى كل دور . فهنيئاً للفيلسوف الأمين حظه الخالد فهو حى ما دامت الكتب فى كتابه الحى « ملوك العرب » الذى كشف لنا فيه ، بل لكل عربى فى العالم ، حقيقة إخوانه الذين يجهلهم .

ما كان أمين فى كل ما كتب إلا مخلصاً يقول الحقيقة كلها . فبينا تراه معك يعطيك كل الحق إن كنت صاحبه ،

إذا به ينقلب عليك ليردك إلى الصواب إن كنت ضالا . كل هذا ببيان خلاب وأدب جذاب وانتقاد يصلح ولا يؤلم . يعالج ويستأصل على حد سواء ، وهو فى كل حال يرمى إلى الإصلاح

إن لكتاب ملوك العرب أجل قيمة فى أدبنا المعاصر ، فهو يعرفنا ما نجهل عن قومنا ، ويؤكد لنا ما سمعناه عنهم ، وعن أرضهم . يصف لنا العربى وشممه ، وحريته وهممه ، وصدقه وكرمه . يرينا أن الرياء لا يستطيب الإقامة تحت السماء التى ريحها نار ، فما يعيش فى تلك الأرض المرملة غير الصراحة التى يراها المتحضرون خشنة كحياة المتسمين بها — عرب البادية .

إن هدف كتاب ملوك العرب وغرضه الأمثل توحيد كلمة الأمة لرفع راية العرب . فقد وصف أمين فيه ملوك العرب أصدق وصف وأصحه ، ووصف مجاهل بلادهم ، وأبرز لنا ما فيها من مشاهد فتانة، وحقق لنا ما كنا نظنه حديث خرافة عن « العربية السعيدة » .

إن كتاب ملوك العرب إلياذتنا ، لو كان شعراً ، ففيه يلبس الواقع ثوب الخيال والفن ، فيبرز للناس فتاناً مغرياً . فأفضل تكريم تسديه الأمة العربية إلى روح نابغتها الريحانى هو قراءة كتابه هذا ، والسعى الحثيث لتحقيق آمال مؤلفه المجاهد ، وقد تحقق بالجامعة العربية بعض حلم الفيلسوف

الكبير ، الداعية الأول للوحدة العربية . لقد عاش وطيد الإيمان بفلاح العرب ومات على هذا الرجاء .

رحمه الله ، وحقق آمال الأمة بتحقيق الأمل الذى مات عليه .

ملوك العرب

الريحانى القصصى ـ حاول الريحانى أن يكتب القصص طويلة وقصيرة فأصاب الهدف الاجتماعى ولكنه ما دنا إلا قليلا من القصص الخالص ، ولم يبرز فى القصة كما برز فى الرحلات ففيلسوف الفريكة كاتب موهوب حسن القص ، وهذا الحسن قد كان رائعاً فى رحلاته ، وسطاً فى قصصه . كان يعنيه المغزى من رواياته أكثر من الفن ، فقصر روائياً فناناً وبرز كاتباً مصلحاً .

كتب أولا المحالفة الثلاثية والمكارى والكاهن ، وتطاول بعدئذ إلى الرواية الفنية فكتب « خارج الحريم » و « زنبقة الغور » و « سجل التوبة » . وفى هذه المجموعة الأخيرة التى ظهرت حديثاً فى سلسلة اقرأ ، انقاد الفن لأمين فى بعضها ولكن القصّ فى هذه جميعها هو دون القص فى كتب رحلاته ،

وخصوصاً كتاب « ملوك العرب » .

ملوك العرب — فلندع الريحانى يحدثنا عما أوحى إليه بهذا الكتاب ، بل بملحمة العرب التى هى نسيج وحدها . قال أمين فى مقدمة كتابه :

« الأجانب يسيحون فى بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد أجدادى ، ويخاطرون بأنفسهم فيها حبًّا بالعلم ، فيكشفون منه المخبأ ويجلون المصدأ ، ويقربون البعيد ويغربون فى اللذيذ المفيد . وأنا فى نيويورك كئيب يحمل كتاباً ، ويطرق للمحرر الإنكليزى المتغطرس باباً . أديب شعره طويل ، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة فى تسويد المقالات . آلة كاتبة يرقص حولها الهم والأمل متخاصرين . أف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة . وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة وأخبث ! طلقتها ثلاثاً ، وعدت إلى بلادى أعد العدة لرحلة تبعدنى عنها وعن الكتب والمجلات ، والأدباء والأديبات .

وكان لى صديق فى دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها . كسرها ذات يوم فأثار السلطة عليه فصفع السلطة وفر هارباً إلى الفريكة ، فحل فيها أهلا ، ونزل سهلا — سهلا فى القلوب ومنحدراً فى الوادى . أقام محمد كرد على عندنا أسبوعاً عددناه من شوارد الزمان .

الوادى مهد الحرية وحصنها الحصين ، سمعنى صديقى — كرد على — أردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع يا أمين ، الوادى قريب من دمشق ومن بيروت وفى المدينتين للعبودية عبيد ، وللظلم أسياد رعاديد . لا بأس بالهمس : والحمد لله . ولكنك إذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلى.

قلت : صدقت ، وفى نيتى أن أهجر حتى هذا الوادى . فى نيتى رحلة إلى البادية ، إلى البلاد العربية ، على هجين يبعدنى عن كل مظلمة ، وكل عبودية .

فهلل صديقى وقال : نسير سوية ، واتفقنا يومئذ على أن نستعين بتجار من نجد فى الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية إلى أهلهم وراء النفود » .

ولكن هذا الحلم لم يتحقق فذهب الأستاذ كرد على فاراً من سورية إلى أوربا ، وعاد أمين إلى نيويورك ، حتى كانت الحرب العظمى وانقضت ، فعاودت الريحانى أحلامه بزيارة العربية السعيدة ، فكان حظ العروبة كبيراً إذا أثمرت تلك الرحلة هذا الكتاب الفذ ، وكان حظ الريحانى كبيراً أيضاً لأنه كتب كتاباً خالداً ومخلداً .

فى هذا الكتاب نثر وشعر ، وفيه فكاهات وطرائف ، وفيه سياسة واجتماع ، وفيه دعوة صارخة إلى تعزيز القومية العربية

باتحاد ملوكها. إنها النواة لفكرة « الجامعة العربية» يوم لم يكن يحلم بها أحد .

ترجم فيه أمين لثمانية هم ملوك أو كالملوك ، بل فلنقل بلغة الريحانى : «ولكنهم ملوك وإن اختلفت الألقاب ، مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض ، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً . لا تجد بينهم من يعرف زميله الملكى معرفة شخصية خاصة ، أو يعرف من الأقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذى هو حاكمه » .

ليس فى ملوك العرب اليوم ملك ساح فى البلاد العربية كلها ، وليس فيهم من يستطيع أن يقول : إنى أعرف بلاد العرب وسكانها وحكامها وقبائلها وأحوالها الاقتصاديةوالا . .وال إلخ

فى كتاب ملوك العرب وصف بل تصوير ناتئ الخطوط للملوك الذين زارهم أمين ، وأحاديثه معهم ترينا نفسية كل ملك منهم ومقدار مواهبه فى كل ميدان . وصف لنا عاداتهم وطرق تشريفاتهم ، وبالاختصار لم يدع شاردة ولا واردة لم يسجلها يراعه الطريف الظريف . وصف العربى وصلابته ، ونقل شذرات من أحاديثه الطريفة التى تدل على ذكاء متوقد ، وبلاغة عرف بها .

« البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون » . هكذا قال الملك حسين . أما أمين فما أجمل تعبيره وتحديده

لسذاجتهم حين سماها الجهل المسلح . إن لأمين كثيراً من هذه التعابير الطريفة ، أحب أن أنقل للقارئ شيئاً منها قال : « لم أتمالك مرة أن أظهرت دهشتي ، وبيدى آلة التصوير إذ رأيت إحدى النسوة تنزل من الجلوت إلى المياه ، وقد شمرت بكرم فضاح ، فقال رفيقى : شيء مألوف : خذ صورتها ولا بأس . فصورت آية النشور ، أما الوجه فمحذور .

وقال فى رجل من الهندوس : إنه من أصحاب السراويل الشفافة التى تهف حول الجنبين وتبوح بكل أسرارهما .

وقال يصور شاعراً يجله ويحترمه : « وقد اختبأ تحت الشوارب جل ذلك الفم البليغ الذى هو ختم الغم إذا سكت ، وباب الصواعق والأضاحيك إذا تكلم . أما الأنف فمنبسط الأطناب مستريح تحت عين دامعة . أما ثيابه فإفرنجية ولكنها كذلك حرة أبية ، بنطلونه كالكيس حول الساق » .

وهو لا يحرم أى موضوع من مواضيعه من مثل هذا الجمال الفنى ، فقال فى نساء الزيود المجدورات : « وأكثرهن يحملن فى وجوههن نبأ حسن ذهب فريسة الجهل والوباء » .

كان غرض أمين من رحلته سياسياً وقد حاول تقريب قلوب ملوك العرب ، وكتب بينهم معاهدات ولكن كل هذا لم يثمر ، ولذلك أرانى مهتما للون الكتاب الأدبى أكثر من لونه

السياسى . سيقال فى غد : لم يفلح أمين سياسياً ولكنه أحدث فى كتب الرحلات أدباً وفناً كان السباق إليها أحمد فارس الشدياق ولعل الفرق بين النابغتين هو أن الشدياق كان يكتب بالقلم العريض ، أما الأمين فيكتب بإبرة الستيلو الدقيقة . . . لقد تماجن أمين وتهكم ولكن من وراء ستار شفاف يدل على محاسن القوام ولا يكشف العورات .

عرفنا بالبلاد العربية أصدق تعريف ، فمن منا كان يعلم أن لبنان يضيع فى جبال اليمن وأوديته المترامية الأطراف . وأن الطير نفسه ليتعثر بسنام الصخور والقنن ، وأن الطائرة إذا حلقت فوقها تضل السبيل فى ما يشبه تحتها أمواج البحر .

وينقلك الريحانى من بحث طبيعى إلى آخر صوفى ، وفى هذا كله تلمس العنصر الشعرى والنثر الفنى ، فتقرأ ما كتب وتصدق كل ما قال . قال يصف الأكل عند الأدارسة :

« وكنت أشتهى بعد سفّ شىء من الأرز بقعة خضراء أرعى فيها. وأشتهى قبل كل شىء الماء فأجده فى النعارة فاتراً ، فأصبه فى الكأس فإذا هو أصفر اللون ، فأغمض عينى وأشرب باسم الله. أما كرم الأدارسة فما كان ليخل قط بقاعدة الضيافة عندهم — قوزة كل يوم .

أغدق الله عليكم أيها الأفاضل ، وبارك الله فيك ياجيزان ،

بركة تشمل من أجل أسيادنا بنى إدريس آلة لتصفية الماء ومعملا للثلج . . . »

قلنا إن الريحانى ساح فى سبيل الجامعة العربية ، وهنا لا بد من نقل كلمة حول الموضوع ، وهى من حديثه مع السيد الأدريسى . قال الإمام :

«المسألة بيننا وبين الشريف ـ أى الملك حسين — قريبة ميسرة . نحن أولاده ، نحترمه ونجله ، ولكننا نطلب منه أن أن يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم فى الأمر ، اها ، ليسألنا ، يشاورنا ، نعم ، هو لنا بمثابة الأب ونحن أبناؤه الرائدون . عندنا حكمة ، آها ، حكمة فى الدين ، حكمة فى السياسة . وعندنا قوة . القبائل فى يدنا . . . والله لا تمر أربعة أشهر على المعاهدة — المعاهدة التى وضعها الريحانى — إلا نكون أصلحنا الأمر بينه وبين ابن سعود ، فتسير القوافل آمنة إلى إلى مكة والمدينة » .

قال أمين : واغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود ، فقلت : إذا أصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد ، فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم وبين الإمام يحيى ، فتتم بذلك المحالفة الرباعية ، وهى كما أظن حجر الزاوية فى الوحدة العربية .

فقال سيادته : هذا كلام حق . ولكن الأمر بيننا وبين ذاك الرجل بعيد .

— وليس على الله ، يا مولاى ، أمر عسير .

— نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الأديب بعيدين مما تروم ، ولكن ذاك الرجل أضربنا ، أضربنا والله ضرراً حسياً ، ونحن نفعناه ، وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش . أما نحن والملك فقد كان النفع والضرر بيننا منادمة ، لذلك ترى الأمر قريباً بيننا » . انتهى

لقد شغلتنا السياسة عن الاستطراد ولكن من كان مثلى لا ينسى . قال أمين : إنه اشتهى بقعة خضراء ليرعى فيها ، فهاكه حقيقة يرعى ، قال : إن أبهج ما يشاهد الإنسان فى الصحراء بقعة أرض خضراء ، ولكن الحيوان ذا السنام كان أو ذا القرون ، يشارك الإنسان فى هذا الابتهاج. وقد تبارينا كلنا حول البرتيسة التى يدوم اخضرارها طيلة السنة .

جاءنى مبارك ، وهو نباتى الحملة ببضع وريقات خضراء يقول هذا الحنبصيص . ثم جاءنى بعشبة أخرى سال لمرآها اللعاب ، الرشاد ، وهو فى بادية نجد نفسه فى لبنان لا يتغير اسماً ولا طعماً ، فتبعت مباركاً إلى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت أرعى فيها كالبعير ، بل رحت أدب على الأربع مثل نبوكد نصر ،

آكل الحشيش ، وأشكر الله ثم الست زبيدة — لأن الكلام بمناسبة السكة التى عبدتها للحجاج — فانتعشت وابتهجت حواسى كلها . فصرت أظن أن الرّشاد والحنبصيص فعلا بالحمى ما عجزت عنه الكينا . على أننى فى رجوعى إلى الأصل ولو ساعة ، أصلحت ليومين ما أفسده الوقوف على الثنتين » .

ويرى أمين تجارة الرقيق فيثور لها ثورة ريحانية يختمها بعبارات قاسية انتقى منها : «أن من يتاجر بالرقيق فى هذا الزمان لا يستحق لقب إنسان ، أجل، وإن أمة لا تستنكر النخاسة لأذل فى عين الله ممن لا يعرفون الله وأحط فى نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة ، ويأكلون لحم الإنسان » .

ولما رأى عدن وقد تقلصت عنها الروح العربية ، وقف وقفة أشعيا وأرميا يسأل عن الأمجاد الدارسة ثم لم تفارقه حكمته فقال : « ولكننا فى زمان سيده المال وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الأول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم إلى وظيفة صغيرة فى معمل هذا الزمان الأكبر » .

ثم تعاوده نوبة التنبؤ فيهتف : « ولكنى أخشى والله من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق — الشرق العاقل ، والشرق المجنون ، والشرق المتعصب والشرق المتساهل — ينهض نهضة واحدة على المدنية الأوربية كلها . بحذافيرها ، لأنه لا يرى فيها غير سيئاتها

غير الشره والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . بودى إذن أن تأزف تلك الساعة ، أن يعدل الأوربى ويعقل الشرقى ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، وينتفع الواحد بالآخر ومنه » .

وقد أراح سلطان لحج فيلسوفنا الريحانى من الكلام عن التعصب الذى حاربه أمين طول حياته . فقال فيه أشياء كثيرة .

وفى مطلع الجزء الثانى يعدنا أمين بالصراحة كلها على شرط أن يكون فيها دائماً شيء من الفائدة أو الفكاهة . فمن فكاهاته الطريفة فى هذا الجزء وصفه رجلا اسمه مسفر : « مسفر هو مدير الحملة ورئيس الخدم ، وهو فى شكله نكتة مضحكة جداً قد لا تليق فى مجالس المتمدنين . وجه عفن وهو يظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء . فهل يصلح الماء والكيمياء أنفاً تسطح على خديه ، وفماً تطاول إلى أذنيه ، وجبيناً داس بشعره حاجبيه ، وعيناً جاءت من القرد إليه ؟ أما لبسه فهو آية فى البلاغة والإبداع . لا يعرف أنجدى هو أم حجازى ، أيمانى أم عراقى . حذاء مرقع تخض رجله فيه ، وسروال كان أبيض لا تظنه غسل فى عهده أو فى عهد أبيه ، فوقه معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركى ، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والأسياخ ، إلا أنه عند ما يركب على بعيره الأسود فوق أحماله ، يبدو ككيس من الأكياس.

إن للمعطف الذى كان يلبسه مسفر جيوباً هى دكان بما حوت . أتبغي خيطاً وإبرة وزراً ، أتبغى ملحاً أو بهاراً أو شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ أتبغى رقعة تمسح بها فنجاناً أو تضمد بها جرحاً ؟ أتبغى قلماً وورقاً لكتابة ؟ سمعاً وطاعة .

دهشت الدهشة الكبرى ولم أتمالك أن ضحكت عند ما أشار إلى رأسه كأنه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . ثم أخرج من « دكانه » مرآة صغيرة قدمها لى لأرى وجهى وأحكم وضع عقالى قبل الرحيل .

هوذا حقاً أقبح خلق الله صورة وأجملهم نفساً وذوقاً. فقل تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ، فهوإذا مسخ الإنسان قرداً يهبه من الجمال الخلقى والروحى ما يندر فى يوسف الحسن وزين العابدين » .

ولا تظنن أن الأستاذ لا يحسن المدح بل اقرأ ما يقول فى ذمة الأعرابي : « وأية ضمانة يقدمها البدوى للتاجر؟ قسمه الله . فهو إذا غاب عشر سنين وعاد إلى الكويت وليس معه غير جمله ، يجيء به إلى التاجر قائلا : هذا حلالك . وإذا مات الأعرابي قبل أن يفي ما عليه ، وكان قد نما ماله ، أى مواشيه ، يجيء أحد أبنائه أو أنسبائه بما يكفى منها لتسديد الدين أو بعضه فيقدمه للتاجر قائلا : هذا حلالك من فلان . ترحم عليه » .

وفى الكويت يتدخل أمين لإصلاح ذات البين بين نجد والكويت فينجح ويجيبه العاهل السعودى : « أما مسألة التنامع الكويت فهذه تحل قريباً حسب رغائب الجميع ، وعلى أحسن ما يكون إن شاء الله »

ويبلغ الريحانى البحرين فيقف عندها وقفة المؤرخ المحقق فيقول إنها مهد الحضارة والشراع ، وإن العرب والفينيقيين من أصل واحد ، وإن فى خليج العجم صور وجبيل كما فى فينيقيا ، وبعد أن يجول ويصول يقول للقارئ : « قد انتهجت فى كتابة هذه النبذة ما أظنها الطريقة المثلى فى التاريخ ، فغربلت الحوادث واخترت منها الأعم والأهم ، وعلقت عليها فى بعض المواقع تتميماً للصورة الذهنية ، صورة المكان والزمان والأحوال ، واجتنبت ، أولا وآخراً ، الإطراء والإطناب ، فوصفت الرجال بما تمليه أعمالهم على المؤرخ .

إن التاريخ هو غير السجع . يجب أن يكون للتاريخ عينان ، وعقل ووجدان . ولا بأس إذا كان له شىء من البداهة والتصور أما القلب فلا حاجة لى فيه ولا يجوز . إن التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له » .

وبعد أن يتبسط فى الكلام على البحرين وحالتها السياسية راح يبدى آراءه المبنية على ما رأى وشاهد فى هذه الرحلة: «وقد

علمت مما شاهدته وتحققته فى البلاد العربية كلها أن بلية العرب الكبرى – كانت ولا تزال – هى النزوع فى كل قبيلة ، بل فى كل عشيرة ، إلى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدإ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه فى بعض الأقطار المذهب الدينى . لا يخضع العرب من مبدإ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه فى بعض الأقطار المذهب الدينى . لا يخضع العرب بعضهم لبعض إلا كرهاً ، ثم ينزعون إلى السيادة المستقلة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا . الجهل أيها الأدباء هو عدو التضامن ، والجهل المسلح أيها الأمراء هو عدو كل رقى وعمران .

ثم يتوجه إلى الإنكليز بالنصح فيقول : إن السياسة العربية التى تمشوا عليها فى الماضى لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب . هى تضر بمصالح بريطانية العظمى ليس فى البلاد العربية فقط بل فى الشرق أجمع ، وتضر بالاسم الإنكليزى وكل ما يرمز إليه من أدب وعلم وكرم أخلاق وسياسة » .

ويدخل العراق فيصف وصوله إليها بطرافة وقومية ريحانيتين فيقول : «عند ما وصلنا إلى البصرة صعد إلى الباخرة موظفو الجمرك والصحة والشرطة وأكثرهم من الهنود . . . وكنت قد أرسلت تلغرافاً من بمباى إلى صديق لى فى الديوان الملكى عله

يأمر فى البصرة من يلاقينى ليهدينى فى الأقل إلى محطة سكة الحديد ، فوجدت نفسى ، ولا أحد يسأل عنى ، أغرب فى هذا البلد العربى القديم منى فى كارتشى الهندية ، وأنا العربى الذى قضى الأيام والليالى ويطالع الحريرى والجاحظ ، ويطحن كريات دماغه فى طواحين الكسائى وسيبويه . أرانى قد نزلت من الباخرة بين قوم لا أفهم لغتهم . فيكلمنى الحوذى بعربية يضطر أن يترجمها إلى شىء من الإنكليزية يفهم . هو أيضاً هندى . ساق جواده الأعرج يجر عربة مكسورة ، وفيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحانى » .

وتذلل العقبات ويبلغ الريحانى بغداد ويلتقى بفيصل فينسى آلامه وتباريحه . تسقط الكلفة بينه وبين الملك الشاب ، وبعد أن يجلسا متقابلين فى مآدب شتى يصف لنا أمين فيصلا :

« الملك فيصل أقرب ملوك العالم اليوم إلى الديمقراطية . لا أظن أن ما يسود الملك فيصلا اليوم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا أظن أن تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة ، وذاك السكوت الذى يسبق الكلام إلى القلوب . إنه فى ما لمع من نجم سعده وهوى فى السبع السنوات الأخيرة ، لمن الأمراء القليل عددهم فى العالم اليوم . فقد دالت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث فى تسابقها حوله وعليه ، فلم

يتمكن لسرعتها من الانتفاع بها » .

« هو ذا أمير عربى كريم فى دائرة خضراء من الشهرة ، دائرة حمراء من السياسة الوطنية ، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية ، وهذه لعمرى حقيقة مآدب الغم — مأدبة الشهرة التى يتلوها وجع الرأس ، ومأدبة النصر فى الحرب يتلوها فشل فى السياسة ، ومأدبة الكرم العربى الممدودة فوق ضريح المطامع العربية » .

إن فى هذا المقطع لأصدق تصوير للحالة التى كان الملك فيصل يتخبط فيها ولم يستطع الخروج من دائرتها ، حتى كانت مأساة موته ، وكم فى الموت ، أحياناً ، من راحة ، ولكننا نسخط دائماً على الموت ولا نقدر له تلك اليد البيضاء التى يمدها إلينا فى الساعة الحرجة .

وبعد أن عرفنا الرحالة إلى الكثيرين من رجالات العراق قال عن المس بل : « هى شبه وزير دار الانتداب ، فينبغى لى أن أفسح لها فى هذا الفصل مجالا . ولا أظن أصحاب المعالى الوزراء يستنكرون أو يعترضون : جاءت — المس بل — الشرق الأدنى سائحة طالبة علم ، وجالت فى البلاد العربية وآخت العربان . تعلم من أمور العراق وعشائره ومشايخه وأشرافه وتجاره والسياسيين فيه ما يندر أن يعلمه سواها . امرأة طويلة نحيلة

جليلة ، تكاد تكون مجموعة أعصاب وأفكار ، هادئة الإشارة واللهجة ، هادئة البادرة ، يتغلب فى حديثها العقل ، وتتغلب فى عقلها السياسة . وهناك شىء من القلب ، بل أشياء ناضجة مستوية . طريقة المس بل السياسية قديمة ، وهى مع ذلك لا تركن فى الأمور لا لعقلها دائماً ولا لقلبها . لا تجبه العراقيين دائماً بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة ، بل تجيئهم مراراً وهى تحمل هدية بدل القضيب . . . . هوذا قلبها عربون إخلاصها أيها الزعيم الوطنى . هى أم المؤمنين يقيناً . وإذا رفضت الهدية والمشورة ، إذا أبيت النصح والامتثال ، فهوذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت إلى يوم وقفت مستعطفاً أو محتجاً فى دار الانتداب » ..

ولا يحرم أمين شعراء العراق ، وكلهم أصحابه ، من فصل خاص بهم ، وكذلك فعل فى (قلب العراق) وقد أريتك نموذجاً من نقده . والآن يطيب لى أن أنقل لك أسطراً أفتتح بها الفصل المعنون (أصحاب القوافى) ، قال : « لولا الشعراء فى العراق لسئمت السياسيين ، ولولا السياسيون لفررت هارباً من الشعراء ، وبكلمة أوضح لولا الفريقان حولى لكنت من الهالكين بيد أنى مشيت مثل البهلوان على حبل الاحتفالات والتكريم ، أحمل بيدى خيزرانة التوازن وفى أحد طرفيها أكرة السياسة وفى

الآخر قيثارة الشعر » .

أما رأيه في شعرنا فقد عبر عنه بقوله : « إن الباحث اليوم في أحوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى أن للسياسة والدين الشأن الأول في الشعر ، بل في أمورهم كلها . أجل إن في مصبغتي السياسة والدين تصطبغ الأقوال والأعمال والآمال ، فيندر الشعر الصافي والنثر الأدبي في ما ينظمون ويكتبون » .

ويمر على المدرسة مرة عجلى فيقول : لم يبق إذن غير المدارس نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية ، وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة . هي البودقة التي تتكون فيها الروح الوطنية الجديدة ، بل هي سياج الوطن ، وفيها عز الملك وشرف الأمة . ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في التكوين ، إلا إذا كانت البودقة واحدة لا تتغير في تغير المكان والمذاهب واللغة . إن أمة تعددت شعوبها ومذاهبها الدينية ، ولغاتها لا يتكون منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهما كان جيشها ، ومهما كانت ثروتها ، إلا إذا أسست الحكومة فيها مدارس عامة ، مجانية ، لا مذهبية ، تتمشى كلها على برنامج واحد ، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة لغة البلاد الأصلية » .

وختم هذا الكتاب الخالد بالكلام عن الوحدة العربية التي هي نقطة الدائرة فيه حتى خلص إلى القول : إن في البلاد العربية

اليوم أربعة ملوك كبار ، وإن فى نفسية الرعايا رعاياهم نصاً على شخصية أولئك الملوك وشرحاً على حالة تسود سياستهم فى البلاد :

« رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

رعية الإمام يحيي تطيعه دون حب ودون خوف .

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ، ولا تطيع إلا مكرهة .

فمن من الملوك المذكورين فى شبه الجزيرة يستحق أن يسود العرب ؟ » .

لقد أعرت كتاب ملوك العرب هذا الاهتمام لأنه أول كتب أمين فى الرحلات ، ولأنه ملخص لما فى كتاب تاريخ نجد الحديث ، وفيصل الأول ، وقلب العراق . وقد أقرأتك ، ما قاله أمين فى وصف الملك فيصل ، فهاك الآن وصفه للسلطان عبد العزيز : «ها قد قابلت أمراء العرب كلهم فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً أو مبالغاً فى ما أقول ، فهو حقاً كبير ، كبير فى مصافحته ، وفى ابتسامته ، وفى كلامه ، وفى نظراته ، وفى ضربه الأرض بعصاه ، إن الرجل فيه أكبر من السلطان ، وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالألقاب . . . غريب عجيب . إلى أن قال : إنى سعيد لأنى

زرت ابن سعود بعد أن زرتهم كلهم . هو حقاً مسك الختام . »

* * *

قال الأستاذ إسعاف النشاشيبي بعد الاطلاع على كتاب « فيصل الأول » .

« قال على بن عبدة الريحانى : حضرنى ثلاثة تلاميذ فجرى لى كلام حسن ، فقال أحدهم : حق هذا الكلام أن يكتب بالغوالى على خدود الغوانى . وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بأنامل الحور على النور . وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بقلم الشكر فى ورق النعم » .

ووالله إن تلاميذ الإمام الريحانى إنما يصفون بأقوالهم هذه كلام فيلسوف الريحانى فى فيصل .

قلب لبنان

كما خصصت كتاب ملوك العرب بتلخيص مطول كذلك فعلت فى قلب لبنان ، وما دعانى إلى هذا إلا أن الريحانى نحا فيه نحواً لم نره فى كتب رحلاته الأخرى . فهو فى هذا السفر النفيس شاعر أكثر منه مناضلا ، ولكنه فى كل حال لم يخلع سيفه ورمحه .

يصح فى كتاب (قلب لبنان) لفيلسوف الفريكة ما قاله

ابنُ المقفعْ عن البلاغة ، أى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يعمل مثلها . فكتاب قلب لبنان رحلات صغيرة فى جبالنا هكذا يقول العنوان . أما ما وراء العناوين فلا يستطيع الناقد الإشارة إليه كله لأن الإحاطة به تقتضينا كتاباً أضخم منه . فالاستطرادات والوخزات ، والغمزات ، والاستنتاجات تفاجئنا فى كل رحلة . فهى تنهض من مكامنها فى كل فصل بل فى كل وجه ، وأستطيع أن أقول فى كل فقرة ، لأن الريحانى لبق فى غمز القناة ، إنه يريد أن يعمل بقول الشاعر :

وكنت إذا غمزت قناة قوم   كسرت كعوبها أو تستقيما

ينقض أمين على المناسبة انقضاض الصقر على فريسته فإذا هى بين مخالبه وبراثنه . فما أقل من يستطيع أن يكتب فصولا رائعة فى مواضيع تافهة كهذه ، ثم يجذبك إليها فلا تدع الكتاب ، وهو ستمائة صفحة من القطع الكبير ، حتى تقرأه من الجلد إلى الجلد .

وإننا نشكر العناية التى كان يؤمن بها أمين إيماناً مطلقاً ويتعبد لها بلا شروط ولا مراسم معتادة ، كما قلنا فى كلامنا عن الريحانيات ، بل قل طبقاً لمراسيم وضعها هو لنفسه ، كان يصلى يومياً على بلاطة لا تزال على الشرفة حيث وضعها . قلت نشكر العناية ولم أقل على ماذا نشكرها عن أمين نشكرها

لأنها أبقت بعده أخاً أديباً فاهماً يرعى بعين يقظى آثار أخيه الخالدة ، ويصدرها للذرية وبالشكل اللائق بها . فالأستاذ ألبرت ريحانى شقيق الأمين هو الذى أهدى إلى المكتبة العربية هذه التحفة الطريفة فى أدبنا الحاضر . فهذا الكتاب اليتيم —كما يسمى الغربيون الأثر الذى يظهر بعد موت صاحبه — شب فى حجر وصى أمين حى الضمير فكان أحنى عليه من الأب . ولهذا اليتيم أخوة آخرون يدرجون فى حجر الوصى ألبرت وسيؤتون حقوقهم، فى حينها ، كاملة غير منقوصة . فليطمئن قلب أمين ، فكل ما خلف فى حرز حتى قصاصات الورق وما خطت عليها يده من حواش ونظرات واحتجاجات .

إن كتاب « قلب لبنان» من طراز كتاب ملوك العرب ،وفيصل الأول ، وقلب العراق ، وصف فيه أمين جبال لبنان ووهاده ، أوديته وقراه ودساكره ، صخوره وأشجاره ، رجاله ونساءه ، خواصه وعوامه ، قلاعه ومعابده ، قديسيه والمكارين فيه . ألم بتاريخ لبنان من أقصى ظلماته إلى عهدنا هذا ، فحقق ودقق مخالفاً هذا ، وموافقاً ذاك من سياح وأثريين ، وعلماء وفلاسفة ، لا يعنيه إلا أن يقول ما يعتقد أنه يحدثك بصراحة ووضوح عن كل شيء حتى نفسه ،لا يكتمك من أسراره إلا ما لا يعنيك أو لا يفيدك . يسرد كل ذلك بلغته الهينة اللينة ، ذات الموسيقى

الشعرية . ولكنك لا نستسلم لموسيقاه حتى توقظك نكتته البارعة اللاذعة . يحملك على أجنحة خياله إلى الزمن الأبعد فيريك ذلك الزمان واضحاً بما يكسوه من الصور الجديدة الفتانة ، فتحسب أنك تعيش فيه وأنك بين قومه الغابرين . يصور لك أم أمين ، رحمها الله ، كيف كانت تشيع ولدها الحبيب عند كل رحلة ، فتحوطه برسم الصليب على وجهه ، وعلى جسمه كله ، ثم تسلمه أمانة للعذراء حبيبتها . ولا يحرم أمين مكاريه وبغلته التى اسمها (محبوبة) من وصف دقيق ، وتصوير يبلغ التمام ، ثم يقص عليك ما كان يدور بينهما من حديث فيريك نباهة وبلاهة هذا المكارى الذى يتأمر حيناً ويطيع أحياناً .

يذكرنى أمين فى كثير من مواقفه فى رحلاته بأحمد فارس الشدياق وكتابه الفلرياق ، فهما من طراز واحد فى السرد وإن اختلفا فى الاحتجاج . احتجاج الشدياق صاخب صارخ ، رائحة أحماضه حريفة ، واحتجاج أمين فولتيرى ناعم ، يمعن فى النكاية كالشدياق ولكنه لا يستفز . قد رأيتهما يتفقان فى أمور كثيرة حتى فى الراهب (الأخ حنا) فلكل منهما راهب يسايره ويماشيه ، ولكنهما يظلان مختلفين أسلوباً ، ونكتة وظرفاً ، فهما لونان مختلفان فى أدبنا العربى ، وإن كتب كلاهما أشياء تخصه يدور عليها كتابه .

فكتاب قلب لبنان يعرفك ، فى معرض الحديث ، على مؤلفه فى لبنان فقط ، يريك كيف نشأ أمين تلك النشأة القروية الساذجة ، فكان لها أبعد أثر فى تكوين شخصية أمين الإنسان . إن أمين الإنسان موضوع خطير يستحق اهتماماً كبيراً ، وهذه الإنسانية قد ظهرت واضحة بارزة الخطوط صارخة الألوان فى وصيته ، كما ظهرت من قبل فى جميع ما كتب . كان أمين نصيراً للحق فى جميع مواقفه ، يكره النفاق والكذب . والرياء والدجل ؛ يخاطب الملوك والقادة بصراحة تدل على شخصية حرة تحترم الإنسانية فى جميع البشر وتقدسها .

يتحدث أمين فى (قلب لبنان) بقلم طليق من كل قيد فلا يحيد مقدار شعرة عن خطته المعلومة ، يطرى المكارم ويعالج المساوئ بالسخر منها والاستهزاء بها . وهو فى كل ذلك لا يتنكب عن جادة العذر لمن يلوم ، ولا ييأس من الصلاح والإصلاح .

وكتاب قلب لبنان معرض تاريخى لشعوب لبنان ، والملوك والقواد والفاتحين والعلماء الذين جاءوا لبنان غازين ومنقبين وباحثين ، وهو يشارك جميع هؤلاء فى نقد شخصياتهم وسياستهم وبحوثهم . فمن وصف فنى إصلاحى ، إلى تهكم لاذع

إلى آراء فلسفية إجتماعية أدبية. يربط بالحاضر فبينا تراك معه فى أعمق الأعماق إذا به يطير بك إلى أبعد الآفاق. ينقلك بلمحة خاطفة من أبعد أبعاد التاريخ إلى حيث نحن اليوم مستعيناً على ذلك بنفسيته وشاعريته وعلمه وثقافته الواسعة، ولا تعجب أن رأيت الريحانى فى قلب لبنان مؤرخاً، وكما يكون التاريخ اليوم، فأمين كان ذا مواقيت لا يتخلف عنها ولا يتأخر، وهو ذو مكتبة ذات قيمة كبرى وخصوصاً فيما يعنيه من تاريخ الأمة العربية، فخزانته تحتوى على أصدق المراجع وأدقها فى هذا الموضوع، وإذا أضفت إلى ذلك سياحاته العديدة وملكته النقدية التى مكنته من تمحيص ما رأى وسمع، عرفت قيمة كتب رحلاته، فهو لا يكتب فصولا خيالية ليقول ما شاء وكيف شاء..

وإذا قلنا هذا فلا نعنى أن تلك الكتب وقلب لبنان تاريخ جاف لا خيال فيه. لا يا سيدى، إن فى قلب لبنان فصولا من الشعر المنثور تعد من روائع الشعر المنظوم، وأمين كما علمت هو أبو هذا اللون من الكلام فى أدبنا العربى، عبر به عن أفكاره حين كان رومنطيقياً، صوفياً، وهو لم يطلقه الثلاث حين أصبح كاتباً عاملا يسعى فى الأقطار العربية لتكوين الجامعة العربية التى لم تقر عينه بها حياً، وإن ارتاحت إليها نفسه ميتاً.

فإذا قرأت هذه القصائد المنثورة في قلب لبنان عرفت أن أميناً رومنطيقي بالمعنى الأتم يهب الحياة للصخور والأشجار والأودية ، والحوادث التي لا تلهم شيئاً . إن هذه الحوادث تحيا وتتحرك تحت قلم أمين كما كان يحيا الحجر تحت أزميل ميكالنج ، والقماش تحت ريشة رافايل . اسمع كيف يتحدث عن الضيافة اللبنانية ، إنه يبدأ هكذا :

« قال فكتور هيغو : الضيافة مفتاح الإخاء الإنساني ، والشعوب المضيافة عماد الإنسانية . وقال كاتب إغريقي قديم : الحرية وحسن الضيافة هما عنوان العظمة في الشعوب .

فالشعب اللبناني العربي في عرف الإفرنسي الشهير هو عماد الإنسانية لأنه مضياف ، ولكنه في عرف الكاتب الإغريقي لم يبلغ من العظمة إلا نصفها أو بعضها أي القسم القائم بحسن الضيافة . أما القسم الآخر ،أي الحرية ، فهو لا يزال مفتقراً إليه . هو لا يزال ينشد الحرية ويتغنى بها ويسلي نفسه بخيالها وقصائد شعرائه فيها .

ليس أجمل من لبنان في جبال الأرض . وإن الله ليكلأ هذا الجمال ، ويصونه في شكله كما في جوهره فلا خوف عليه في الحالين . أما الشعب اللبناني فمن يكلأه يا ترى ، ويصونه في حسن ضيافته ؟ الحرية .

الضيافة مع الحزبية تدوم ، أما بدون الحربة فالشك فى دوامها أقرب إلى الذهن منها اليقين » .

وهنا أيضاً لم يدرك أمين ما كان يصبو إليه من استقلال وحرية للبنان. مات المجاهد فى سبيل الحرية ، ثم عاشت بعده ، وهكذا يحيا الخالدون .

وبعد ، فلم يمتعنا أمين فى « قلب لبنان » بفصول رائعة من نقده الأدبى العذب كما فعل فى ملوك العرب وقلب العراق . ولكنه انتقد (على الماشى) كما نقول ، فلذع وتهكم . فإذا قيض لك أيها القارئ العزيز أن تقرأ هذا الكتاب فلا تظن أن الريحانى يكيل المدح للناس بالمد ، أرجو منك أن تقرأ ما بين السطور لتدرك ما يقول أمين ، وما يقصد ، وما يعنى ، ولا يغرك ظاهر الكلام . ثم لا تظنن أننى عرفتك بهذا الكتاب معرفة كاملة ، فهذا لا يتم لك إلا إذا اطلعت عليه فتعرف الريحانى ومن شاء أن يعرفك بهم كما عرفهم هو ويريد أن تعرفهم أنت . ولا يليق بنا أن ندعوك إلى مأدبة أمين الحافلة بكل طريف شهى ثم لا نريك ولو لقمة صغيرة منها ، فدونك يا عزيزى ، هذا الصندويش ، فنحن فى عصر العجلة ، وقل فينا من يشترى كتاباً يتمتع هو به ويبقيه لذريته من بعده . إذن هذه بعض نتف من شعر أمين المنثور ، وأننى أذكرك بأن

اللغة الشعرية منثورة فى صفحات الكتاب كلها وقلما خلا وجه من معنى أو صورة شعريين طريفين ، اسمع قليلا من قصيدة الأرز :

« إيه ربة الأشجار ، وسيدة الجبل الجبار :

أنت الرافعة أعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء .

بنت الجديدين وأخت القمرين ، حدثينى .

حدثينى وعلمينى ، وارفعينى إلى علياء إيمانك .

حدثينى عن ريح الشمال .

— تجيئنى مولولة نائحة ، فأوقفها لتستريح ، فتستحيل أنفاساً عطرية .

— حدثينى عن الغيث إذا همى .

— هو يرقص على الصخور حولى ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على أوتار قيثارتى فتسمعه أغانى البلابل والأمواج .

— حدثينى عن العواصف .

— هى تصعد هائجة من الأودية ، وتهبط مجلجلة من الآفاق ، فتدق حولى طبولها ، فأفتح لها قلبى ، فتدخل ثائرة ، ثم تسكن وتنام ، تحت أجنحة السلام .

— حدثيني عن الصخور .

— هي المحدثة قبلي وبعدي . منها تربي وإليها مصيري . وهي في حياتي قرة عيني ، وزينة نفسي ، بل هي هيكلي الخالد ، العامر اليوم بي ، السائل غدا عني » .

وعلى ذكر الصخور ننتقل بك إلى قطعة من هذا النشيد الخالد : نشيد الصخور . خبرنا أمين : أن أحدهم سأل جده المطران باسيل عبد الأحد: « ما فائدة الصخور؟ فأجابه فوراً : « الصخور عظام الأرض » وكأني بأمين نظم قصيدة للصخور إحياء لذكرى هذا الجد الأبعد ، فاسمع كيف تدب الحياة في الصخور تحت قلم الشاعر الملهم ، قال :

« والصخور ؟

هل وقفت مرة بين الصخور ، تتأمل تكوينها وأشكالها ، ومعاني جمالها وجلالها .

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهدمة إلى ما وراء العمد والجدران — إلى روح الكيان ويد الزمان ؟

هل في شموخها غير العز ، وفي روعتها غير الصولة ، وفي هولها غير الأخطار ، وفي رسوخها غير القوة ، وفي تخاريبها غير الضعف ، وفي صفوفها غير الفوضى ، وفي منعرجاتها غير الجهل والحيرة .

الصخور الشاهقة المحلقة ، الصخور الرابضة والواتية والهاوية ، والصخور المانعة الواجمة المنذرة ، الصخور المتكاتفة والمتخاذلة هل وقفت مرة تتأملها ، وتحاول الدخول إلى قلبها ، إلى السر المكنون فيها ؟

إن فى قلبها النواة التى كانت تموج تحت الأمواج ، وفى قعوز البحار .

إن فى قلبها جرثومة الحياة الأزلية الأبدية .

إن فى قلبها الذرة السرية التى تحيا بالتحطيم ، فتغدو غذاء وشذى فى الأشجار والأزهار .

إن فى قلبها سجن الأنانية وصمت الأحزان .

إن فى قلبها الرمز الخالد لسوط الزمان .

إن فى قلبها رسالة التصعيد حتى فى الجلاميد .

من قعور البحار إلى أعالى الجبال من الظلمات الموحلة المجرثمة المطحلبة ، إلى أوج النور . والتبلور والصفاء .

هذه مرحلة الصخور بل ملحمتها .

وهل فى شموخها غير العز والمجد؟ إن فيه ضرائح التضحيات ، وأحاجى الموت والحياة .

وهل فى روعتها غير الصولة والجلال ؟ إن فيها الصبر

القاتم ، والعزم الواجم ، والصمت الدائم .

وهل فى هولها غير الأخطار ؟ إن فيه نبأ البراكين والسعير ، وقصة الزلازل والأعاصير .

وهل فى نخاريبها غير الدليل على الضعف والوهن ؟ إن فيها الدليل على عطف لا يزال فى قلبها حيا ، وعلى حنان لا يزال نديًّا . إن فى نخاريبها بيتاً للعصفور ، ومأوى للحلزون ، وإن فيها نايات للرياح .

وهل فى صفوفها غير الفوضى ؟ إن فيها تتمثل أوليات الحياة فى التحرير والتقييد ، وسنن الحياة فى التنوع والتوحيد .

إلى أن يختم قصيدته هذه بقوله : هى الصخور الحافظة للأرز الأبواب ، الضاربة حول الأرز الأطناب ، الحاملة عرش الأرز على المناكب والرقاب » .

وهنا يجب على أن أقص عليك بإيجاز خبر تحول أمين من شاعر صوفى روحانى إلى كاتب وشاعر نضال جسدانى . ساء الفيلسوف أن يظل الشرق غافياً ، والناس يضجون حوله فثار على الشعر الباكى لا للحط من مقام شاعره الأمثل بل للنهوض بأمة كاد يقتل رجولتها ذاك الشعر المخنث .

كان أمين فى فجره الأدبى يخاطب الدورى والغورى . ثم أفاق من تلك الغفوة الهانئة ليخطب الناس فى سفح الأهرام ،

يوم كرموا جهاده ، فقال شعراً منثوراً بلسان الشرق بدأه هكذا :

« أنا الشرق .

عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات » .

هذا ما قاله منذ ثلث قرن ، كما مر بك ، وها نحن نرانا اليوم فى أمس الحاجات إلى ما دعا إليه أمين وتمناه .

وإذا قرأت « قلب لبنان » ترى الريحانى لا يبرح دائرته تلك ، فهو هو فى عقيدته ، تجدها أينما طلبتها ، فأمين لم يبرح نقطة دائرة فكرته .

تأمل كيف يخرج النقد اللاذع حين يتحدث أثناء مروره با (المشنقة) حيث حفرت فى صخرة صورة صراع أدونيس مع الخنزير البرى ، فقال يغمز قناة الابتداب :

« اشغل غليونك ، وافتح عيون خيالك . احرق من تبغ هذا الزمان على ذكر أدونيس فتى الفتيان ، أدونيس المعبود الأعلى ، إله الحب والألم والبعث والخلود . وهل هناك مفر وانعتاق ؟ هل يخلو الحب من ألم ؟ وهل ينجو الألم من الموت ؟ وهل يحرم الموت النعمة الكبرى : — البعث والخلود » .

« فلو كان أدونيس متجسداً اليوم ، ومقيماً فى هذا الجبل

اللبنانى لرأى الخنزير البرى فى أسواق المدينة وفى دوائر الحكم . لا فى الأودية والغابات ، ولصرع فى قتاله كما صرع الرؤساء والزعماء فى هذه الأيام . على أن صرعة الإله لغير صرعة السياسيين ، كهاناً كانوا أو تجاراً . ولا عجب . إن صرعة فيها شجاعة الإيمان والتضحية لتثمر روح التضحية والإيمان فى أجيال من الناس . أما الصرعة التى فيها إرادة غاوية ، ذات عين لاوية ، يقاد صاحبها بدعوة إلى مأدبة ، أو برشوة ووسام ، فماذا تثمر يا رعاك الله . »

وعلى ذكر كرونس إله الفينيقيين ذى الثمانى أعين يقول أمين : «أما العيون فإن لنا منها ، نحن اللبنانيين ، أكثر مما كان لكرونس إله الفينيقيين . إن لنا من الخيال والأحلام والأوهام ، مائة عين وعين فنرى الفراديس ونحن نائمون ، وننام ونحن ماشون إلى الهاوية . . . »

إن الريحانى فى قلب لبنان كاللاعب بالسيف والترس ، يضرب ويتلقى بخفة ورشاقة مستعيناً بجميع مواهبه ، ولم يسلم من لذعه شىء حتى أسماء الناس .

أعجبته ضيافة سابا بطرس أبريانوس وحرمته ، وأعجبته كلمة (حرمة) وفضلها على زوجة وعقيلة وقرينة ومدام فقال : « ليس فى (الحرمة) ما تشتم منه القيود — عقيلة الرجل — مصفدته

قرينته . فى الحرمة احترام ومحرم ، وفى الحرمة عروبة صافية . ولكن اسم زوجها إبريانوس ؟ .ماذا تفعل به يا رجل ؟ ومن أين جاء إبريانوس ، إن هذا الاسم ليقتل كل أمل بالوحدة اللبنانية اليمانية . على أن هذا الرجل ذا الأسماء الثلاثة الفظيعة — سابا بطرس ابريانوس هو خير الرجال . يقرى الضيف ويضرب بالسيف ، ويبنى بيته ، مثل صنوه فى (خولان) ، ومثل إخوانه النسور بين الصخور . . . . إن الحياة لا تصفو لأحد من الناس . وإن صفت فى نبعها فقد تتعكر فى جرن العمادة » .

إن ضجة أمين حول « سابا بطرس إبريانوس » لا أثر للكلفة فيها لأنه ، رحمه الله ، كان يكره هذه الأسماء الطائفية حتى التطير ، وقد يكون هذا التأثر نجم فى نفسه منذ نومته مع والدته ، والغرزوزية الحسناء ، فى كنيسة كفيفان وفاء لنذر أمه التقية ، فشفيع دير قديس كفيفان اسمه قبريانوس . . .

رحم الله من ربى الريحانى وربانا ، فقد جرت الرياح بما لا تشتهى السفن ، ولولا المشيئة التى يحيرنا ممشاها لما جاء (قلب لبنان) كتابا فريداً .

المغرب الأقصى

سار الريحانى من لبنان مهد الأساطير إلى الجزيرة سرير النبوة حيث درج وشب النبي العظيم، ثم فتح الدنيا دينه الجديد، ودانت لسلطانه وسلطان خلفائه أمم الأرض . وكأن الأمين الذى لم يتنكر قط لرسالته العربية أبى أن يحرم المغاربة منا مما جاد به على المشارقة ، فشمر الأردان ومشى إلى المغرب الأقصى .

وعاد من ذلك الفردوس ليكتب عنه هذا الكتاب الضخم الحامل بين دفتيه تاريخاً قديماً وحديثاً . وكأنه خاف على كتابه من القراء الذين تعودوا أكل السندويش فقال فى المقدمة يحذر قارئه :

« فلا يزال هذا الكاتب صديقك القديم يقول كلمته ويمشى ، مشيت أنت معه أو وقفت وتخلفت ، فهو لا ينتظر ، وهو لا يتوقع من أحد الرفقاء — القراء — أن يماشيه حتى النهاية ».
وأخيراً ختم هذه المقدمة بما يأتى : « إن فى المغرب طبخة يسمونها الحريرة ، هى شبيهة بالحساء ، ولكنها تشتمل على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير ، فيرسب الأكبر فى قعرها ،

فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل فى احتسائك إلى القعر — إلى النهاية .

فإلى قعر الحريرة — إلى النهاية » .

حقًّا إن كتب أمين لا تعطيك المتعة كاملة إلا إذا قرأتها برمتها . فآراؤه وضحكاته ، وقرصاته ولسعاته تعثر بها أنى اتجهت فى كتابه ، ولكن (التاريخ) الذى لا يستطيع أن يهمله ، فى كتاب كهذا ، قد يعرقل حركة السير . إنه شر لا بد منه لمن يكتب مثل هذه الرحلات ، ولكنك فى قراءة ما يكتبه أمين فى التاريخ لا تجمد ولا تمل ، لأن فى خرج هذا (المغربى) الجديد عقاقير مختلفة ، فهى كفيلة بتجديد نشاطك مهما تبلدت .

يتحدث أمين فى الفصل الأول وعنوانه « من الاستقلال إلى الحماية » عن تطاحن الدول فى المغرب الأقصى ، ويتعرض أخيراً لسياسة القروض الهدامة لحرية الدولة فينقل كلمة المؤرخ جوليان : عند ما وقع الباى وثيقة ذلك القرض حكم على تونس بالموت ، « فهل يتعظ سلاطين المغرب ؟ وهل يتعظ أمراء الشرق وملوك الغرب ؟ وهل تتنبه الشعوب العربية ؟ »

ويعبر عن سياسة الانتهاز فى هذا الفصل بقوله : هى سياسة المطرق والحديد الحامى . اضرب وعجل بالضرب .

وعجل كذلك بالبيان ، اطمئنانا للمضروب ، وإن كان لا يحسن الظن بالضارب . . . »

وإذا ماشيت الريحانى ، ولم تتركه يمشى وحده ، تحظى بتهكمه اللاذع كقوله، مثلا ،حين تكلم عن تسمية الأندلس: « فما هى (البنسولا) بلغة قحطان ؟ يقول صاحب محيط المحيط ، الناقل عن الفيروزابادى والمكمل لأغلاطه ، يقول بعد أن يحدد الجزيزة تحديداً صحيحاً : (وإذا أحاط (الماء) بها إلا من جهة واحدة قيل لها شبه جزيرة وبحيثجزيرة . فمن أين جاء المعلم بطرس بهذه البحيثجزيرة ؟ إن كان المعلم بطرس ناقلها أو مخترعها ، فهو يستحق أن يذكر فى صلوات الأب أنسطاس الكرملى المحترم » .

ويرى أمين مدينة (سبتة) فتستيقظ عروبته ويقول ، ولكن هل نامت عروبته ساعة من العمر حتى نقول استيقظت ! قال :

«كنت أتوقع أن أرى على شاطئ أفريقيا مدينة أفريقية عربية ، فرأيت مدينة أوربية إسبانية فى كل أحوالها ومظاهرها — فنبا القلب وخاب الأمل » .

وأمين كما عرفت ، من الكتاب القلائل الذين يجسدون فى تصويرهم المرئيات حتى يخيل إليك أنك تراها . يصف لنا

مناظر الأندلس الطبيعية بل كل ما فى الأندلس من عمل الله والإنسان . رأى شيخاً يؤلف من الطين قطعة من الفسيفساء ، فقال له أمين مشيرا إلى الرسوم أمامه : هذه ؟

فأجابه فوراً : « منها القديم المقلد، ومنها الجديد المولد » قالها بالعربية الفصحى فأعجب بنطقه أمين وقال : ولكن الأستاذ من المتعلمين وإن لعب بالطين . . . »

وهنا فليسمح لى صديقى أمين أن أذكره ، أن (الأستاذ الأعظم) كان أول اللاعبين بالطين، فجاء فى تماثيله عباقرة ومجانين . . .

ومما أعجبنى من مبتكراته الكلامية فى هذا الكتاب تعبيره عن ابتسامة دليله الصفراء : «فكانت لهجة دليلى مذهبة بابتسامة الرضى » وقوله فى مكان آخر : « أما المدينة فهى تفدى نفسها بالمال وأما الديمقراطية أختها بالسفاح ، فإن لها مثل القطط سبعة أرواح ، فلا خوف على الاثنتين ولا هما تحزنان » .

ويحدثنا عن طريقة فى سجن المجرمين من أطرف الطرق وخيرها وأحدثها ، فكأن المجرمين فيها يعيشون أحراراً ، ثم يخرجون رجالا فاضلين مستغنين بالعمل عن الإجرام .

وفى معرض الكلام عن « العرب والبربر » يجدد أمين عهده للعروبة فيقول : « ووجهة نظرنا هى وطنية إنسانية ،

ووطنيتنا هى عربية قومية لا عربية إسلامية . فقد جهرنا بذلك مئة مرة ومرة ، ولا ننفك نجهر به فى كل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها ، وأشواقها وآمالها إن كان فى المشرق أم فى المغرب . وإن لنا فى الوطنية غرضاً أكبر فيها . ذلك الغرض ناشىء عن الحقيقة التاريخية الظاهرة الباهرة ، وهى أن العرب عنصرهم من العناصر الإنسانية المتحضرة ، العريقة فى الحضارة الناشرة أعلامها فى العالم . وإن لها مطالب قومية وأمانى سياسية ، لا تتجاوز حد تحقيقها إلا لتكون والأمم الأخرى على ولاء تام ، وعاملة لتحقيق الإخاء الإنسانى ، والسلم الدولى العام فى العالم » .

وقد كتب فى « أشبيليه » فصلا شعرياً كما فعل فى قلب لبنان وغيره من كتب رحلاته .

ويتحدث عن الفن الأندلسى الإسبانى حديث ناقد خبير ثاقب النظر ، فيصف أدق أسراره ، ويكشف للقارئ خبايا جماله ، ويقول حين يتكلم عن النهضة العربية الثقافية الوطنية «إنها لا تزدهر ازدهاراً شاملا إلا بعد أن يخرج الأجانب المسيطرون من البلاد العربية » .

وبعد هذا يرسم للجنرال فرنكو صورة ناطقة مستخرجاً من ظاهره ما يدلك على باطنه . وقصارى القول فى هذا الكتاب أنه

طاووسى الشكل ، فنصيحتى لمن يقرأه — ويجب أن يقرأ — ألا يدعه قبل أن يأتى على آخره . فهو ينتقل فيه من فصل ممتع إلى فصل أمتع . وحسبك أن تقرأ فصل « الريسونى » لتوافقنى فى كل ما قلت .

ونبلغ فصل « بطولة الأولين » فنسمع كلمة حر صادق ما حابى طول حياته أحداً حتى أعز أحبابه وإخوانه ، قال : « ليس فى الفاتحين شعب يضاهى العرب اقتدارا وانتصاراً ، وليس فى المتقهقرين من يستطيع أن يشق غبارهم . سقطت قرطبة ، فتعددت القرطبات الساقطات » .

ويروى أشياء عن ثورة فرنكو يطيب لك أن تقرأ تفاصيلها الغريبة ، وخصوصاً حكاية الجنرال مسكردو وولده التى تذكرك بجهاد العرب الأولين وتضحياتهم العظمى .

هذا ما حدثتك به هنا عن كتاب المغرب الأقصى ، وقد مر بك أشياء عنه فى مواضع متفرقة . إن التلخيص كماء الورد ، أما قراءة الكتاب كاملا ففيها ما يبهج الحواس جمعاء .

فإلى حديقة « المغرب الأقصى » يا صاحبى .

رضيت من الغنيمة بالإياب

الريحانى الذى مات عن لا شىء من الثروة إلا ١٥ ليرة لبنانية فى بنك إسكندر حداد ، و ١٢ مثلها فى بنك دى روما ، وخمس ذهبات فى جيبه . والريحانى الذى كان يقول لأخته سعدى حين يعطى السائل كل ما يملك : الكفن لا جيب له يا سعدى . هذا الريحانى قد عاد من رحلاته كلها ولم تكن يده السفلى أبداً ، اللهم إلا بعض هدايا : سيف ابن سعود الخاص الذى حارب به ابن الرشيد ، قرابه من ذهب ونصله يرجع تاريخه إلى الفتح الإسلامى فى إيران .

وأهدى الشيخ خزعل إلى جلالة عبد العزيز سجادتين يوم كان الريحانى عنده ، فقال الملك : نحن سكان خيام ، أعطوهما للأستاذ الريحانى . اسم إحدى هاتين السجادتين شجرة الحياة ، واسم الثانية الكرة الأرضية .

وهناك هدية ثالثة من الطويل العمر وهى فرس أصيلة مسماة نوره باسم شقيقته .

وأهدى إليه سلطان لحج صندوقة نحاس مزركشة ، و « مداعة » طول نربيجها ١٨ قدما .

وعرض عليه الملك حسين الألقاب والأوسمة فأبى ، ولكنه

قبل منه خنجراً – شريفاً – وقطعة من كسوة الكعبة ، وهذه لم يحزها مسيحى .

وقد رأيت فى البيت مسبحة مسيحية قيل إنها هدية من البابا لزوجة أمين ، وقد حولتها تلك الزوجة إلى أم أمين . أما آثاره فركوة قهوة وغلايين ، وريش ، وضبوة وقليل من التبغ ، وقلم حبر وقلشين وعصا ، والساعة وبندها المشهور أى لقطتها التى كانت تتدلى على صدر أمين فيبدو بها كأحد رجالات فجر القرن التاسع عشر .

ورغم جهاد الريحانى ونضاله لم نفكر حتى الآن بتشييد ضريح له . وقد صنع المهاجرون تمثالا له وأرسلوه إلى سوريا لينصب فى هذه الديار ولكنه ما زال نائماً نومة أهل الكهف .

رحم الله الريحانى الذى عاش ومات أميناً .

مائدتى

تحت هذا العنوان كتبت عدة رسائل إلى أصحابى ورفقائى الذين غادروا هذه الدنيا الباقية ، فكان أولها هذا الكتاب ، إلى الريحانى حين حالت (المراقبة) فى (الحرب الثانية) دون الكتابة عنه .

أخى أمين .

يا سبحان الله ، ما كنت أحسب أنك ستكون أول مدعو إلى مائدتى. وكأنى أراك بعينى ، وأسمعك بأذنى تتساءل وتقول: « وما مائدتك يا رجل .

ليست مائدتى أكلا وشرباً ، بل براً وسلاماً كملكوت الله . هى سفرة بلا ملاعق . أمدها فى هذه الزاوية من « المكشوف » داعياً إليها الناس من بنى وبنى . . . كثيراً ما أجلس المدعوين عليها ، أما حضرتك فمدعو، اليوم للجلوس إليها ، ويا ألف مرحباً .

كيف حالك اليوم ، لا شك أنك عندك خير منك عندنا . السؤال بارد ، والجواب صقيع وجليد . إياك والجواب .

دع هذا المنديل الأخضر المعصوبة به عيناى . إنه أشد التقاطا لرسوم الأحلام والأمانى من منديل فيرونيكا الفوتوغرافى . وما أظرف تلك الشياطين التى توسوس فى صدورنا فنضحى بمنافعنا المحسوسة لنتحقق أمنية قد تكون أكذب من أخواتها وأبشع منهن .

ما لنا والفلسفة . كيف حال من عندك ؟ كيف أخونا جبران ، وصاحبنا فليكس ، وعمنا رشيد ، ماذا أحدثوا بعدنا . أأنجز جبران صورة سلمى كرامه ؟ هل انتصب فليكس خطيباً أمام الشيخ السرمدى . وهل التقى أبو أمين بأم القميص الزهر ، أم تراه أنشد البطرك إلياس أحد أزجاله . هل غضب غضبته (الهاشمية) ساعة عوّقوك عن الدخول ؟

أكان (أخوك فيصل) أول من اجتمعت به تحت زيتونة الجنة ؟ يا الله ! ! كدنا ننسى أستاذنا الشميل .

كيف صحته ، أيطبب يا ترى ، أم يناقش توتنخمون فى المذهب الدروينى ؟ .

لا تقل ما هذه الرقاعة ، أبهذا الكلام الفارغ تودع أصحابك ؟ غض النظر يا أمين . والله العظيم ، نهضت للقيام بالواجب فوقع الطبق ، وكبت الصحون . يا ليت . تكسرت كلها . . .

يعز على الأوس بن تغلب ساعة   يسل على السيف فيها وأسكت

أنت « بعبع » يا أخى ، قبل الموت وبعده . وإلا فكيف يخنق قلم يودع صديقه الراحل ! إن تشييع المقضى عليهم بالصلب غير محرم .

تذكر كلمة ذاك الوزير فى الجاحظ : أثق بظرفه ولا أثق بدينه . أما أنا فوثقت بظرفك ودينك معا . أثبت أنك ممن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فأبوا ذلك على وعليك . أنت والله أشد إيماناً من ابن طيما . وحسبك أنك قلت : ليس فى حقائق الوجود كلها أنصع من حقيقة البعث والخلود . « فيصل الأول ص ٢١٦ » .

أواه ! ! لولا تعطينى بعض هذا اليقين فأقول لصنين : «تعال إلى هنا فيجى. صدقنى يا أخى إذا قلت لك: ما زلت كما فارقتنى . مثل ذاك المطروح عند بركة « حسدا » ليس من يرمينى فيها إذ يحركها الملاك ، ولا من يصيح بى : احمل سريرك وامش . فما أنكد عيش المخلعين .

لا تسألنى عن شىء ، فحالى وحالك كبطرس كرامه مع أميره بشير حين أرسله رائداً فكتب إليه : الصندوق فى سطمبول والمفتاح فى لندره . أما صرت روحاً خالدة فافهم عنى واتركنى إلى حين ، إلى الساعة التى ينطلق فيها قلمى فيتجسد

رأيي فيك كتاباً . إنك تاريخ حقبة مر فيها العقل الشرقي بأزمات حاولت أنت أن تفرجها ، فمت ولما تستول على الأمد . أما الآن : فنحن سكوت والهوى يتكلم .

خضت المعارك لا تخشى من الرمد ، فمن فراشة فى شعرك المنثور إلى نسر قشعم جثم على قمم المنابر . وحلق بشمس الحقيقة بعينيه الثنتين .

أوه ، الحمد لذاكرتى لم أنس أن أقص عليك خبراً فرّحني جداً . خبرنى صديق الطرفين الأستاذ خليل تقى الدين أنك (عدت) إلينا وقرأت فى (المهد) عدد المكشوف الخاص هاشا باشا . أما ألف باء الأرواح فأنبأتنا أنك تائه فى برية كالدهناء . . . وفيما أنت تتكلم إذا بروح تطلع علينا طلوع صموئيل على عرافة عين دور ، احزر روح من هى .

كان محدثنا الشميل ، قال : أمين لم يصل بعد . الحبائل نصبت فى طريقه . عدّوه خطراً على العرش . ولكن شفاعة أمه ستقضى على تلك الدسائس .

بحياتك يا حبيبى ، جاوب عن كل هذا أوّل بأول . ليتك تتلفن فيرتاح بالنا . قد تكون تلك السقطة نستك بعض الأرقام . اطلب عاليه رقم ـــ١ ـــ ٤٨ تجدنى منتظراً .

(سرا) حيرنى ، والله ، ختام مكتوبى هذا ، لا أدرى

كيف انتهى . ألك كيان فأقبلك ، أو أكتفى بالتحية من بعيد . . .

أخوك مارون

عاليه ٣٠ / ١٢ / ١٩٤٠

الجديد فى المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم للطالب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوّده بثروة وافرة من الفصحى وتصقل ملكاته وترهف فيه الإحساس والشعور .

دار المعارف بمصر

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو المتعة والثقافة وسمو النفس .

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد